كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء العاشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت ٣١٨١٠

كتاب ذمّ البخل وذمّ حبّ المال

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ورددهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير . كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا

والصلاة على محمد الذى نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ولكن الأموال أعظم فتنها ، وأطم محنها . وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها · فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لاتكون عاقبة أمره إلا خسرا ، وبالجملة فهى لاتخلو من الفوائد والآفات . وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التى لايقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين ، من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة ، بل فى الدنيا عامة . إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشفى الغيظ بحكم

الغصب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها ، ولها أبعاض كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل : ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل ، وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى ، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفاقد حالتان ، القناعة ، والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحريص حالتان ، طمع فيما في أيدي الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شر الحالتين . وللواجد حالتان ، إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق وإحداهما مذمومة ، والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان ، تبذير ، واقتصاد . والمحمود هو الاقتصاد . وهذه أمور متشابهة ، وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم

ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى . وهو بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ، ثم ذم الحرص والطمع ، ثم علاج الحرص والطمع ، ثم فضيلة السخاء ، ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء ، ثم الإيثار وفضله ، ثم حد السخاء والبخل ، ثم علاج البخل ، ثم مجموع الوظائف في المال ، ثم ذم الغنى ومدح الفقر إن شاء الله تعالى

بيان

ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [1]) وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [2]) فمن اختار ماله وولده على ما عند الله ، فقد خسر وغبن خسرانا عظيما ، وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [3]) الآية وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [4]) فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ [5]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا

(كتاب ذم البخل وحب المال)

١) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل : لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف

(١) المنافقون : ٩ (٢) التغابن : ١٥ (٣) هود : ١٥ (٤) العلق : ٦ ، ٧ (٥) التكاثر : ١

يُنبتُ الْماءُ الْبَقْلَ» وقال صلى الله عليه وسلم[1] «ماذئبانِ ضاريانِ أُرسلاَ فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إِفْسَادًا فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ» وقال صلى الله عليه وسلم[2] « هَلَكَ الْمُكْثِرُونَ إِلاَّ مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادِ اللهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَاهُمْ »[3] وقيل يارسول الله ، أي امتك شر ؟ قال « الْأَغْنِيَاءُ » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « سَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطَايِبَ الدُّنْيَا وَأَلْوَانَهَا وَيَرْكَبُونَ فُرَّهَ الْخَيْلِ وَأَلْوَانَهَا وَيَنْكِحُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وَأَلْوَانَهَا وَيَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ وَأَلْوَانَهَا لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ الْقَلِيلِ لاَتَشْبَعُ وَأَنْفُسٌ بِالْكَثِيرِ لاَتَقْنَعُ عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ إِلَيْهَا اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ إِلَهِهِمْ وَرَبًّا دُونَ رَبِّهِمْ إِلَى أَمْرِهَا يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَتَّبِعُونَ . فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ لِمَنْ أَدْرَكَهُ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقِبِ عَقِبِكُمْ وَخَلَفِ خَلَفِكُمْ أَنْ لاَ يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَعُودَ مَرْضَاهُمْ وَلاَ يَتْبَعَ جَنَائِزَهُمْ وَلاَ يُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى

---

(١) حديث ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم: الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جائعان مكان ضاريان ولم يقولا فى زريبة وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذى حسن صحيح وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد ما ذئبان ضاريان فى زريبة غنم ـ الحديث : وللبزار من حديث أبى هريرة ضاريان جائعان واسناد الطبرانى فيهما ضعيف

(٢) حديث هلك الأكثرون الامن قال به فى عباد الله هكذا وهكذا ـ الحديث.: الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن أبزى بلفظ المكثرون ولم يقل فى عباد الله ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بلفظ المكثرون وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بلفظهم الأخسرون فقال أبو ذر من هم فقال هم الاكثرون أموالا إلا من قال هكذا ـ الحديث :

(٣) حديث قيل يارسول الله أى أمتك شر قال الاغنياء: غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى فى الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا وللبزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم

(٤) حديث سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ـ الحديث بطوله الطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث أبى أمامة سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون فى الكلام أولئك شرار أمتى وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا ،

هَدْمِ الْإِسْلاَمِ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » [٣] وقال رجل يارسول الله ، مالي لا أحب الموت ؟ فقال « هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » قال نعم يارسول الله . قال « قَدِّمْ مَالَكَ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ إِنْ قَدَّمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَّفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَخِلاَّءُ ابْنِ آدَمَ ثَلاَثَةٌ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ وَالثَّالِثُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ »

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ، مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : مامنزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا حسنة . قال لكنهما والمدر عندي سواء .

[٥] وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما ، ياأخي ، إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدي شكره ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ اللهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ امْضِ فَقَدْ أَدَّيْتَ حَقَّ اللهِ فِيَّ ثُمَّ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِعِ اللهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ

---

(١) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر : البزار من حديث أنس وفيه هانىء بن المتوكل ضعفه ابن حبان

(٢) حديث يقول العبد مالي مالي ـ الحديث : مسلم من حديث عبدالله بن الشخير وأبي هريرة وقد تقدم

(٣) حديث قال رجل يارسول الله مالي لا أحب الموت ـ الحديث : لم أقف عليه

(٤) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره ـ الحديث : أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد ـ الحديث :

(٥) حديث كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه ـ الحديث : قلت ليس هو من حديث سلمان انما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع

كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ وَيْلَكَ أَلاَ أَدَّيْتَ حَقَّ اللهِ فِيَّ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ » . وكل ماأوردناه فى كتاب الزهد والفقر ، فى ذم الغنى ومدح الفقر ، يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره . وكذا كل ماذكرناه فى ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ماورد فى المال خاصة . قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ مَاقَدَّمَ ؟ وَقَالَ النَّاسُ مَاخَلَّفَ ؟ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا الدُّنْيَا »

الآثار : روى أن رجلا نال من أبى الدرداء ، وأراه سوأ ، فقال اللهم من فعل بى سوأ فأصح جسمه ، وأطل عمره ، وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء ، مع صحة الجسم وطول العمر ، لأنه لابد وأن يفضى إلى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ، ثم قال ، أما إنك مالم تخرج عنى لاتنفعنى . وروي أن عمر رضي الله عنه ، أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها . فقالت ماهذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له . ثم سلت سترا كان لها ، فقطعته وجعلته صررا ، وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها . ثم رفعت يديها وقالت ، اللهم لايدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به

وقال الحسن ، والله ماأعز الدرهم أحد إلاأذله الله . وقيل إن أول ماضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ، ثم وضعهما على جبهته ، ثم قبلهما وقال ، من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط بن عجلان ، إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين ، يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ ، الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل ومارقيته؟ قال أخذه من حله ، ووضعه فى حقه . وقال العلاء بن زياد ، تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة ، فقلت أعوذ بالله من شرك . فقالت إن سرك أن يعيذك الله منى ، فأبغض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها ، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها . فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قيل

---

(١) حديث إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم .. الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة يبلغ به وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٢) حديث لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا : الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ فترغبوا

إنى وجدت فلا تظنوا غيره آن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضا

لا يغرنك من المر ء قميص رقعه

أو إزار فوق عظم ال ساق منه رفعه

أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه

أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال ياأمير المؤمنين ، صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك . تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من الولد ، فقال عمر ، أقعدونى ، فأقعدوه . فقال، أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما ، فإنى لم أمنعهم حقالهم ، ولم أعطهم حقا لغيرهم . وإنما ولدى أحد رجلين ، إما مطيع لله فالله كافيه ، والله يتولى الصالحين. وإما عاص لله، فلا أبالى على ما وقع

وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا ، فقيل له لو ادّخرته لولدك من بعدك قال لا ، ولكنى أدخره لنفسى عند ربى، وأدخر ربى لولدى . وروى أن رجلا قال لأبى عبد ربه ياأخى ، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير ، فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ ، مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته . قيل وماهما ؟ قال يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله

بيان

مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز ، فقال جل وعز (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا)[1] الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ

(٢) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح :أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ نعما وقال للمرء

(١) البقرة : ١٨٠

لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » وكل ماجاء فى ثواب الصدقة والحج ، فهو ثناء على المال ، إذلا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى (وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [(١)]) وقال تعالى ممتنا على عباده(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً [(٢)]) وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » وهو ثناء على المال

ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح ، إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده ، وآفاته ، وغوائله ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه ، وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . فإنه ليس بخير محض ، ولا هو شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعا . وماهذا وصفه فيمدح لامحالة تارة ، ويذم أخرى . ولكن البصير المميز ، يدرك أن المحمود منه غير المذموم . وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر ، من بيان الخيرات ، وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه ، هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة ، التي هى النعيم الدائم ، والملك المقيم ، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] ، من أكرم الناس وأكيسهم فقال « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً » ، وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل فى الدنيا ، وهى الفضائل النفسية ، كالعلم ، وحسن الخلق ، والفضائل البدنية ، كالصحة ، والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن ، كالمال ، وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة ، فالخارجة أخسها . والمال من جملة الخارجات . وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ، ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما ، ولا يرادان لذاتهما . إذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها . والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس ، والأعضاء . والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح

---

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : أبو مسلم الليثى فى سننه والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس وقد تقدم فى كتاب ذم الغضب

(٢) حديث أكرم الناس وأكيسهم قال أكثرهم للموت ذكرا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ أى المؤمنين أكيس ورواه ابن أبى الدنيا فى الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد

---

(١) الكهف : ٨٢ (٢) نوح : ١٢

إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها ، وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب ، فقد عرف قدر المال ، ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن ، الذي هو ضرورة كمال النفس ، الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ، ملتفتا إليها ، غير ناس لها ، فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه . فإذاً المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح . ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة ، وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذاً محمود مذموم . محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم [١] . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه، فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر ، كما ورد به الخبر . ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله ، وكان المال مسهلا لها وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره ، حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام [٢] « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللَّهُمَّ [٣] أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » واستعاذ ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، فقال (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [١]) وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر . وإنما معنى عبادتهما حبهما ، والاغترار بهما ، والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم [٤] « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ وَلَا انْتَعَشَ وَإِذَا شِيكَ * فَلَا انْتَقَشَ » فبين أن محبهما عابد لهما . ومن عبد حجرا فهو عابد صنم . بل كل

---

(١) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر : تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية احذروا الدنيا

(٢) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا : الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٤) حديث تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل وانتقش وانما علق آخره بلفظ تعس وانتكس ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

---

(١) ابراهيم : ٣٥

---

* أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالمنقاش

من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقه ،فهو كعابد صنم .وهو شرك ، إلا أن الشرك شركان ، شرك خفى لايوجب الخلود فى النار ،وقلما ينفك عنه المؤمنون ،فإنه أخفى من دبيب النمل،وشرك جلى،يوجب الخلود فى النار نعوذبالله من الجميع

بيان

تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق . ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره

أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية . أما الدنيوية ، فلا حاجة إلى ذكرها ، فإن معرفتها مشهورة ، مشتركة بين أصناف الخلق . ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها

وأما الدينيه ، فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة ، أو فى الاستعانة على عبادة . أما فى العبادة ، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، فإنه لايتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات . والفقير محروم من فضلهما . وأما فيما يقويه على العبادة ، فذلك هو مطعم والملبس ، والمسكن ، والمنكح ، وضرورات المعيشة . فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، كان القلب مصروفا إلى تدبيرها ، فلا يتفرغ للدين . وما لايتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين ، من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط

النوع الثاني : مايصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام ، الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام أما الصدقة ، فلا يخفى ثوابها ، وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة ، فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف ، فى ضيافة ، وهدية ، وإعانة ، وما يجرى مجراها ، فإن هذه لاتسمى صدقة بل الصدقة مايسلم إلى المحتاج . إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ، ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود

إلا من يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا ، والضيافات ، وإطعام الطعام ، من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها . . وأما وقاية العرض ، فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته فى العاجلة ، من الحظوظ الدينية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَاوَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة ، التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة

وأما الاستخدام . فهو أن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر ، الذى هو أعلى مقامات السالكين . ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام ، وطحنه ، وكنس البيت ، حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه . وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل به غرضك ، فأنت متعوب إذا اشتغلت به . إذ عليك من العلم والعمل ، والذكر والفكر ، مالا يتصور أن يقوم به غيرك ، فتضييع الوقت فى غيره خسران

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين ، ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر ، والرباطات ، ودور المرضى ، ونصب الحباب فى الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات . وهى من الخيرات المؤبدة ، الدارة بعد الموت ، المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية . وناهيك بها خيرا .

فهذه جملة فوائد المال فى الدين ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة فى القلوب . فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية

وأما الآفات فدينية ، ودنيوية . أما الدينية فثلاث

الأولى : أن تجر إلى المعاصى ، فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد . ومهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية ، لم تتحرك داعيته

(١) حديث ماوقى المرء عرضه به فهو صدقة : أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم

فإذا استشعر القدرة عليها ، انبعثت داعيته . والمال نوع من القدرة ، يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور . فإن اقتحم ما اشتهاه هلك . وإن صبر وقع في شدة ، إذ الصبر مع القدرة أشد . وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء

الثانية : أنه يجر إلى التنعم في المباحات ، وهذا أول الدرجات . فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ، ويلبس الثوب الخشن ، ويترك لذائذ الأطعمة ، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه ، فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ، ويمرن عليها نفسه ، فيصير التنعم مألوفا عنده ، ومحبوبا لا يصبر عنه . ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ، ويخوض في المراآة ، والمداهنة ، والكذب ، والنفاق ، وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ، ويتيسر له تنعمه . فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلابد وأن ينافقهم ، ويعصى الله في طلب رضاهم . فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى ، وهي مباشرة الحظوظ ، فلا يسلم عن هذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد ، والحقد ، والرياء ، والكبر ، والكذب ، والنميمة ، والغيبة ، وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضا إلى سائر الجوارح ، وكل ذلك يلزم من شؤم المال ، والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

الثالثة : وهي التي لا ينفك عنها أحد ، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى . وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام ، في المال ثلاث آفات . أن يأخذه من غير حله . فقيل إن أخذه من حله ؟ فقال يضعه في غير حقه . فقيل إن وضعه في حقه ؟ فقال يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله ، والتفكر في جلاله . وذلك يستدعى قلبا فارغا . وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان في الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة ، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه ، وانفراده بالربح ، وتقصيره في العمل ، وتضييعه للمال . وكذلك

صاحب المواشى ، وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه ، وفى كيفية حفظه ، وفى الخوف مما يعثر عليه ، وفى دفع أطماع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها . والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك .

فهذه جملة الآفات الدنيوية ، سوى مايقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف ، والحزن ، والغم ، والهم ، والتعب فى دفع الحساد ، وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه . فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقى إلى الخيرات . وماعدا ذلك سموم وآفات ، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه ، إنه على ذلك قدير

بيان

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه فى كتاب الفقر . ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى مافى أيديهم ، ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان . ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم ، والملبس ، والمسكن : ويقتصر على أقله قدرا ، وأخسه نوعا . ويرد أمله إلى يومه ، أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير ، أو طول أمله ، فاته عز القناعة ، وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص . وجره الحرص والطمع إلى مساوى الأخلاق ، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت . وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع ، وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ » [٢] وعن أبى واقد الليثى ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه ، أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه . فجئته ذات يوم فقال « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس وانس

(٢) حديث أبى واقد الليثى ان الله عزوجل يقول إنا أنزلنا المال لاقام الصلاة وإيتاء الزكاة ـ الحديث : أحمد والبيهقى فى الشعب بسند صحيح

وادٍ مِنْ ذَهَبٍ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ »[١] وقال أبو موسى الأشعرى ، نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت. وحفظ منها ، إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ،ويتوب الله على من تاب .وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ مَنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ »وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْأَمَلُ وَحُبُّ الْمَالِ »أو كما قال .

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة، وغريزة مهلكة، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال صلى الله عليه وسلم[٤] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ بِهِ »وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « مَا مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلَا غَنِيٍّ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب ، فقال[٧] « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال ، أى عبادك أغنى؟ قال أقنعهم بما أعطيته. قال فأيهم أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود. قال رسول الله

---

(١) حديث أبى موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ـ الحديث : مسلم مع اختلاف دون قوله ان الله يؤيد الدين ورواه بهذه الزيادة الطبرانى وفيه على بن زيد متكلم فيه

(٢) حديث منهومان لا يشبعان ـ الحديث : الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٣) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشة كفافا وقنع به :الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه

(٥) حديث مامن أحد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى فى الدنيا قوتا :ابن ماجه من رواية نفيع ابن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف

(٦) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس :متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٧) حديث ألا أيها الناس اجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له :الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح اسناده وقد تقدم فى آداب الكسب والمعاش

صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ » وقال أبو هريرة . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيَا الدَّمَارُ » وقال ابو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا »

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصارى ، أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يارسول الله عظنى وأوجز. فقال (٣) « إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَلَا تُحَدِّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » وقال عوف بن مالك الأشجعى ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ ؟» فلنا أو ليس قد بايعناك يارسول الله ؟ ثم قال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ » فبسطنا أيدينا فبايعناه. فقال قائل منا ، قد بايعناك ، فعلى ماذا نبايعك ؟ قال « أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الْخَمْسَ وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا » وأسر كلمة خفية « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه

الآثار : قال عمر رضى الله عنه ، إن الطمع فقر . وإن اليأس غنى . وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم . وقيل لبعض الحكماء ، ما الغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . وفى ذلك قيل

---

(١) حديث ابن مسعود ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف فيه وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس ـ الحديث : ابن ماجه وقد تقدم

(٣) حديث أبى أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه واجمع اليأس مما فى أيدى الناس : ابن ماجه وتقدم فى الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح الاسناد

(٤) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال ألا تبايعون ـ الحديث : وفيه ولا تسألوا الناس مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا وقال سوط أحدهم وهى عند أبى داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف

العيش ساعات تمر وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع ، يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ، ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال سفيان : خير دنياكم مالم تبتلوا به ، وخير ماابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادى ياابن آدم ، قليل يكفيك ، خير من كثير يطغيك وقال سميط بن عجلان ، إنما بطنك ياابن آدم شبر فى شبر ، فلمَ يدخلك النار ؟وقيل لحكيم ما مالك؟ قال التجمل في الظاهر ، والقصد فى الباطن ، واليأس مما فى أيدى الناس

ويروى أن الله عز وجل قال ، ياابن آدم ، لوكانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . وإذا أنا أعطيتك منها القوت ، وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا إليك محسن وقال ابن مسعود ، إذا طلب أحدكم الحاجة ، فليطلبها طلبا يسيرا ، ولا يأتى الرجل فيقول، إنك وإنك فيقطع ظهره ، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أوما رزق . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم ، يعزم عليه إلارفع إليه حوائجه . فكتب إليه قد رفعت حوائجى إلى مولاى ، فما أعطانى منها قبلت ، وما أمسك عنى قنعت

وقيل لبعض الحكماء ، أى شيء أسر للعاقل ؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال، أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء.وقال بعض الحكماء ، وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع.وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفى ذلك قيل

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لايدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق فى دهره شيئا يؤرقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا فى حل وترحال وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لاأنفك مغتربا عن الأحبة لا يدرون ما حالى

بمشرق الأرض طوراثم مغربها لايخطر الموت من حرصي على بال

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه ، ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى؟حلتان لشتائي وقيظي وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي ، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ، ولا بأوضعهم . فو الله ما أدري أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها . وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال ياأخي ، أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه . كأنك ياأخي لم تر حريصا محروما ، وزاهدا مرزوقا . وفي ذلك قيل

أراك يزيدك الإثراء حرصا على الدنيا كأنك لا تموت

فهل لك غاية إن صرت يوما إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي ، حكى أن رجلا صاد قنبرة ، فقالت ماتريد أن تصنع بي ؟ قال أذبحك وآكلك . قالت والله ما أشفي من قرم ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعلمك ثلاث خصال ، هي خير لك من أكلي . أما واحدة ، فأعلمك وأنا في يدك ، وأما الثانية ، فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة ، فإذا صرت على الجبل . قال هات الأولى . قالت: لاتلهفن على مافاتك . فخلاها ، فلما صارت على الشجرة ، قال هات الثانية ، قالت لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت . ياشقي ، لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالا . قال فعض على شفته وتلهف وقال ، هات الثالثة . قالت أنت قد نسيت اثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ، ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ؟ ولا تصدقن بما لا يكون ؟ أنا لحمي ، ودمي ، وريشي ، لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمي ، فإنه يعميه عن درك الحق ، حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون

وقال ابن السماك ، إن الرجاء حبل في قلبك ، وقيد في رجلك . فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد اليزيدي ، دخلت على الرشيد، فوجدته ينظر في ورقة

مكتوب فيها بالذهب . فلما رآنى تبسم . فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال نعم .
وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية . فاستحسنتهما . وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدنى

إذا سد باب عنك من دون حاجة   فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه   ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب   ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ، ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها
وعقلوها ؟ قال الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل ، فسر لى قول
كعب . قال يطمع الرجل فى الشيء يطلبه ، فيذهب عليه دينه . وأما الشره ، فشره النفس
فى هذا وفى هذا ، حتى لا تحب أن يفوتها شيء . ويكون لك إلى هذا حاجة ، وإلى هذا
حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك ، وقادك حيث شاء ، واستمكن منك ، وخضعت له .
فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، لم تسلم عليه لله عز وجل ،
ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك من مائة حديث عن فلان عن فلان

قال بعض الحكماء ، من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودى بدوام البقاء فى أيام الدنيا
لم يكن فى قوى خلقته من الحرص على الجمع ، أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع ،
وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد ، مررت براهب ، فقلت له من أين تأكل ؟
قال من بيدر اللطيف الخبير ، الذى خلق الرحا يأتيها بالطحين . وأومأ بيده
إلى رحا أضراسه . فسبحان القدير الخبير

بيان

علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان ، الصبر ، والعلم ، والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور
الأول : وهو العمل ، الاقتصاد فى المعيشة ، والرفق فى الإنفاق . فمن أراد عز القناعة ،
فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه . فمن
كثر خرجه ، واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة . بل إن كان وحده ، فينبغى أن يقنع بثوب

واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ، ويقلل من الأدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه ، وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ، ويمكن معه الإجمال فى الطلب ، والاقتصاد فى المعيشة . وهو الأصل فى القناعة ، ونعنى به الرفق فى الإنفاق ، وترك الخرق فيه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ » وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض ، وهو يقول إن من فقهك رفقك فى معيشتك

وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٤] « الْإِقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالْهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بِضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » وفى الخبر [٥] « التَّدْبِيرُ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللهُ وَمَنْ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ اللهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « إِذَا أَرَدْتَ أَمْراً فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً » والتؤدة فى الإنفاق من أهم الأمور

الثانى : أنه إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه ، فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه

---

(١) حديث ان الله يحب الرفق فى الأمر كله : متفق عليه من حديث عائشة وتقدم

(٢) حديث ماعال من اقتصد : أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد

(٣) حديث ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والعضب : البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف

(٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزأ من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمت الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة

(٥) حديث التدبير نصف المعيشة : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد ابن عيسى جهله العقيلى ووثقه ابن معين

(٦) حديث من اقتصد أغناه الله ـ الحديث : البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصرى قال الذهبى شيخ لايعرف حاله أتى بخبر منكر أى هذا الحديث ولأحمد وأبى يعلى فى حديث لأبى سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله

(٧) حديث اذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا : رواه ابن المبارك فى البر والصلة وقد تقدم

وإن لم يشته حرصه . فإن شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الأرزاق . بل ينبغى أن يكون واثقا بوعد الله تعالى ، إذ قال عز وجل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [١]) وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار ، فربما تمرض ، وربما تعجز ، وتحتاج إلى احتمال الذل فى السؤال . فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب ، خوفا من التعب ، ويضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله ، لتوهم تعب فى ثانى الحال ، وربما لا يكون . وفى مثله قيل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما [١] « لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُؤُسُكُمَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين ، فقال له [٢] « لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ مَا يُقَدَّرْ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » . ولا ينفك الإنسان عن الحرص ، إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال فى الطلب بل ينبغى أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر . قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [٢]) فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال سفيان ، اتق الله فما رأيت

---

(١) حديث لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما ـ الحديث : ابن ماجه من حديث حبة وسواء ابنى خالد وقد تقدم

(٢) حديث لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك . قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحبته ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافرى مرسلا

(٣) حديث ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب ـ الحديث : تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا

(٤) حديث أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب : ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بإسناد واه ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

---

(١) هود : ٦ (٢) الطلاق : ٢ ، ٣

تقيا محتاجا . أى لا يترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبى ، قلت لأعرابى ، من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت فإذا صدروا ؟ فبكى وقال ، لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش . وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين . شيئا منهما هولى ، فلن أعجله قبل وقته ، ولو طلبته بقوة السموات والأرض ، وشيئا منهما هو لغيرى ، فذلك لم أنله فيما مضى ، فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى ، كما يمنع الذى لى من غيرى . ففى أى هذين أفنى عمرى ، فهذا دواء من جهة المعرفة ، لابد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر

الثالث : أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فإذا تحقق عنده ذلك ، انبعثت رغبته إلى القناعة ، لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة الا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس، وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس ، والقدرة على متابعة الحق . فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس ، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ، ويلزمه المداهنة . وذلك يهلك دينه . ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم[1] « عزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » ففى القناعة الحرية والعز . ولذلك قيل ، استغن عمن شئت تكن نظيره . واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره

الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود ، والنصارى ، وأراذل الناس ، والحمقى من الأكراد ، والأعراب الأجلاف ، ومن لا دين لهم ولا عقل ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء ، والأولياء ، وإلى سمت الخلفاء الراشدين ، وسائر الصحابة والتابعين . ويستمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة

---

(١) حديث عز المؤمن استغناؤه عن الناس : الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصحح اسناده وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى مسند الشهاب من قول النبى صلى الله عليه وسلم

أراذل الناس ، أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك ، والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم فى البطن ، فالحمار أكثر أكلا منه . وإن تنعم فى الوقاع ، فالخنزير أعلى رتبة منه : وإن تزين فى الملبس والخيل ، ففى اليهود من هو أعلى زينة منه . وإن قنع بالقليل ، ورضي به ، لم يساهمه فى رتبته إلا الأنبياء والأولياء

الخامس: أن يفهم مافى جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا فى آفات المال ، ومافيه من خوف السرقة ، والنهب ، والضياع . وما فى خلو اليد من الأمن والفراغ . ويتأمل ما ذكرناه فى آفات المال ، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ، ألحق بزمرة الأغنياء ، وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه . فإن الشيطان أبدا يصرف نظره فى الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب ، وأرباب الأموال يتنعمون فى المطاعم والملابس . ويصرف نظره فى الدين إلى من دونه فيقول ، ولم تضيق على نفسك وتخاف الله ، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ، والناس كلهم مشغولون بالتنعم ، فلم تريد أن تتميز عنهم . قال أبو ذر [١] أوصانى خليلى صلوات الله عليه ، أن أنظر إلى من هو دونى ، لا إلى من هو فوقى ، أى فى الدنيا . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ »

فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل ، للتمتع دهرا طويلا ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء ، لشدة طمعه فى انتظار الشفاء

بيان
فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقودا ، فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص .

---

(١) حديث أبى ذر أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم أن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر لمن هو فوق أحمد وابن حبان فى أثناء حديث وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه: متفق عليه وقد تقدم

وإن كان موجودا ، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء ، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل . فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم [١] حيث قال « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ إِلَى الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ تَعَالَى إِنَّ هَذَا دِينٌ أَرْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلاَّ السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ » وفي رواية « فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » . وعن عائشة الصديقية رضي الله عنها، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « مَا جَبَلَ اللهُ تَعَالَى وَلِيًّا لَهُ إِلاَّ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ »

وعن جابر قال ، قيل يارسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ [٤] قال « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » وقال عبد الله بن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يُبْغِضُهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ تَعَالَى فَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ »

---

(١) حديث السخاء شجرة في الجنة ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسيأتي بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد

(٢) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى ان هذا دين رضيته لنفسي ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق: الدارقطني في المستجاد وقد تقدم

(٣) حديث عائشة ماجبل الله ولياله الا على السخاء وحسن الخلق: الدارقطني في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا

(٤) حديث جابر أي الايمان أفضل قال الصبر والسماحة: أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء. بلفظ سئل عن الايمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ ما الايمان قال الصبر والسماحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقي في الزهد بلفظ أي الأعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق واسناده صحيح

(٥) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخا ـ الحديث : أبو منصور الديلمي دون قول في آخره وإذا أراد الله بعبد خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمي أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس اليه وفيه يحيى ابن شبيب ضعفه ابن حيان

وَأَمَّا اللَّذَانِ يَبْغَضُهُمَا اللهُ فَسُوءُ الْخُلُقِ وَالْبُخْلُ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ » وروى المقدام بن شريح ، عن أبيه ، عن جده ، [١] قال ، قلت يارسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلَ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءَ السَّلَامِ وَحُسْنَ الْكَلَامِ » . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ فَمَنْ كَانَ سَخِيًّا أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَالشُّحُّ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ فَمَنْ كَانَ شَحِيحًا أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ » وقال أبو سعيد الخدري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى اطْلُبُوا الْفَضْلَ مِنَ الرُّحَمَاءِ مِنْ عِبَادِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي وَلَا تَطْلُبُوهُ مِنَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ » وقال ابن مسعود . قال صلى الله عليه وسلم [٥] « الرِّزْقُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ أَسْرَعُ مِنَ السِّكِّينِ إِلَى ذِرْوَةِ الْبَعِيرِ وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُبَاهِي بِمُطْعِمِ الطَّعَامِ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ »

---

(١) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام : الطبراني بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفي رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام وافشاء السلام وفي رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام

(٢) حديث أبي هريرة السخاء شجرة في الجنة ـ الحديث : وفيه والشح شجرة في النار ـ الحديث : الدارقطني في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري ضعيف جدا

(٣) حديث أبي سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء والخرائطي في مكارم الأخلاق والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدي وقال انه مجهول وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار ابن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لابأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدي ورواه الحاكم من حديث علي وقال انه صحيح الاسناد وليس كما قال

(٤) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر : الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الاخلاق وقال الخرائطي أقيلوا السخي زلته وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه باسناد ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني

(٥) حديث ابن مسعود الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ـ الحديث : لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ وَيُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » . وقال أنس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة . فرجع إلى قومه فقال ، ياقوم أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء من لايخاف الفاقه . وقال ابن عمر ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَمَنْ بَخِلَ بِتِلْكَ الْمَنَافِعِ عَلَى الْعِبَادِ نَقَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِ » . وعن الهلالى قال ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) بأسرى من بنى العنبر ، فأمر بقتلهم ، وأفرد منهم رجلا . فقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، يارسول الله ، الرب واحد ، والدين واحد ، والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ اقْتُلْ هَؤُلَاءِ وَاتْرُكْ هَذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَكَرَ لَهُ سَخَاءً فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةً وَثَمَرَةُ الْمَعْرُوفِ تَعْجِيلُ السَّرَاحِ » وعن نافع ، عن ابن عمر قال ، قال رسول الله

الخير أسرع إلى البيت الذى يغشى وفى حديث ابن عباس يؤكل فيه من الشفرة الى سنام البعير ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث : وكلها ضعيفة

(١) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالى الأمور ويكره سفسافها: الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز وهذا مرسل وللطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور وفى الكبير والبيهقى معالى الأخلاق ـ الحديث : وأسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

(٢) حديث أنس لم يسأل على الاسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين الحديث : مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

(٣) حديث ابن عمر إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبدالله ابن زيد الحمصى ضعفه الأزدى

(٤) حديث الهلالى أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا الحديث : وفيه فان الله شكر له سخاء فيه لم أجد له أصلا

(٥) حديث إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح: لم أقف له على أصل

صلى الله عليه وسلم [١] « طَعَامُ الْجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مَؤُنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ » فمن لم يحتمل تلك المؤنة ، عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام، إستكثروا من شيء لا تأكله النار . قيل وما هو ؟ قال المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « الْجَنَّةُ دَارُ الأَسْخِيَاءِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَأُ الدَّاءِ الْبُخْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « أَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَقَدْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « إِنَّ بُدَلاَءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الأَنْفُسِ وَسَلاَمَةِ الصُّدُورِ وَالنُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ »

---

(١) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء : ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدفى فى عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وأنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فان أهل مصر تكلموا فيه

(٢) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ ماعظمت نعمة الله على عبد إلا دكره وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من حديث عمر باسناد منقطع وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ورواه العقيلى من حديث ابن عباس قال ابن عدي يروى من وجوه كلها غير محفوظة

(٣) حديث عائشة الجنة دار الأسخياء : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال الذهبي حديث منكر ما آفته سوى حجدر قلت رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا

(٤) حديث أبي هريرة إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ـ الحديث : الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه وأدوأ الداء البخل ورواه بهذه الزيادة : الدارقطنى فيه

(٥) حديث اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله . الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم فى آداب المعيشة

(٦) حديث إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الانفس ـ الحديث : الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينورى أورد ابن عدى له مناكير وفى الميزان أنه ضعيف منكر ـ الحديث : ورواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المرى متكلم فيه

وقال أبو سعيد الخدرى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وُجُوهاً مِنْ خَلْقِهِ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فِعَالَهُ وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَسَّرَ الْغَيْثَ إِلَى الْبَلْدَةِ الْجَدْبَةِ فَيُحْيِيهَا وَيُحْيِي بِهِ أَهْلَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةً وَمَا وَقَى بِهِ الرَّجُلُ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ نَفَقَةٍ فَعَلَى اللهِ خَلَفُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَالدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ وَاللهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « كُلُّ مَعْرُوفٍ فَعَلْتَهُ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ صَدَقَةٌ »

وروى أن الله تعالى ، أوحى إلى موسى عليه السلام ، لا تقتل السامرى فإنه سخى

وقال جابر ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] بعثا ، عليهم قيس بن سعد بن عبادة ، فجهدوا ، فنحر لهم قيس تسع ركائب . فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْجُودَ لَمِنْ شِيمَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ »

الآثار : قال على كرم الله وجهه ، إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها ، فإنها لا تفنى . وإذا أدبرت عنك فأنفق منها ، فإنها لا تبقى . وأنشد

---

(١) حديث أبى سعيد إن الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف ـ الحديث: الدارقطنى فى المستجاد من رواية أبى هارون العبدى عنه وأبو هارون ضعيف ورواه الحاكم من حديث على وصححه

(٢) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ـ الحديث : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالى وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة

(٣) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان: الدارقطنى فى المستجاد من رواية الحجاج بن ارطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت فى العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميرى ضعيف

(٤) حديث كل معروف فعلته الى غنى أو فقير صدقة : الدارقطنى فيه من حديث أبى سعيد وجابر والطبرانى والخرائطى كلاهما فى مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين

(٥) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم الحديث : وفيه فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدارقطنى فيه من رواية أبى حمزة الحميرى عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجودبها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن على رضى الله عنهم ، عن المروءة ، والنجدة ، والكرم . فقال أما المروءة ، فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيفه ، وحسن المنازعة والإقدام فى الكراهية . وأما النجدة ، فالذب عن الجار ، والصبر فى المواطن . وأما الكرم، فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ،والإطعام فى المحل، والرأفة بالسائل،مع بذل النائل

ورفع رجل إلى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة ، فقال حاجتك مقضية . فقيل له يابن رسول الله ، لو نظرت فى رقعته ، ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال ، يسألنى الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدىّ حتى اقرأ رقعته . وقال ابن السماك، عجبت لمن يشترى المماليك بماله ، ولا يشترى الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب ، من سيدكم ؟ فقال من احتمل شتمنا . وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وقال على بن الحسين رضى الله عنهما ، من وصف يبذل ماله لطلابه ، لم يكن سخيا . وإنما السخى من يبتدىء بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته ، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له ، إذا كان يقينه بثواب الله تاما . وقيل للحسن البصرى ، ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك فى الله عز وجل . قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه . قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة

وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه ، لامال أعون من العقل ، ولا مصيبة أعظم من الجهل ، ولا مظاهرة كالمشاورة . ألا وإن الله عز وجل يقول ، إنى جواد كريم ، لايجاورنى لئيم . واللؤم من الكفر ، وأهل الكفر فى النار . والجود والكرم من الإيمان ، وأهل الإيمان فى الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه ، رب فاجر فى دينه ، أخرق فى معيشته ، يدخل الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلا فى يده درهم ، فقال لمن هذا الدرهم؟ فقال لى . فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . وفى معناه قيل

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعى ، كتب الحسن بن علي ، إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم

يعتب عليه فى إعطاء الشعراء . فكتب إليه ، خير المال ماوقى به العرض . وقيل لسفيان ابن عيينة ، ماالسخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال . قال وورث أبى خمسين ألف درهم ، فبعث بها صررا إلى إخوانه وقال ، قد كنت أسأل الله تعالى لأخوانى الجنة فى صلاتى ، أفأبخل عليهم بالمال ! وقال الحسن . بذل المجهود فى بذل الموجود ، منتهى الجود

وقيل لبعض الحكماء ، من أحب الناس إليك ؟ قال من كثرت أياديه عندى قيل فإن لم يكن قال من كثرت أيادى عنده . وقال عبد العزيز بن مروان ، إذا الرجل أمكننى من نفسه ، حتى أضع معروفى عنده ، فيده عندى مثل يدى عنده . وقال المهدى لشبيب بن شبة ، كيف رأيت الناس فى دارى ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا . وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

إن الصنيعة لاتكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها ... لله أو لذوى القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ، إن هذين البيتين ليبخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا ، وإن أصاب اللئام كنت له أهلا

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر ، عن أم درة ، وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها ، قالت ، إن معاوية بعث إليها بمال فى غرارتين ، ثمانين ومائة ألف درهم . فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس . فلما أمست ، قالت ياجارية ، هاتى فطورى . فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة ، مااستطعت فيما قسمت اليوم ، أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتينى لفعلت . وعن أبان بن عثمان قال ، أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس ، فأتى وجوه قريش فقال ، يقول لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم . فأتوه حتى ملأوا عليه الدار . فقال ماهذا ؟ فأخبر الخبر . فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا ، وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم ، فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد ، فأكلوا حتى صدروا . فقال عبيد الله لوكلائه ، أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم . قال فليتغد عندنا هؤلاء فى كل يوم

وقال مصعب بن الزبير ، حج معاوية ، فلما انصرف مر بالمدينة . فقال الحسين بن على

لأخيه الحسن ، لاتلقه ، ولا تسلم عليه . فلماخرج معاوية ، قال الحسن ، إن علينا دينا ، فلابد لنا من إتيانه . فركب فى أثره ولحقه ، فسلم عليه ، وأخبره بدينه . فروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار ، وقد أعيا وتخلف عن الإبل ، وقوم يسوقونه . فقال معاوية ماهذا ؟ فذكر له . فقال اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد . وعن واقد بن محمد الواقدى قال ، حدثنى أبى أنه رفع رقعة إلى المأمون ، يذكر فيها كثرة الدين ، وقلة صبره عليه . فوقع المأمون على ظهر رقعته ، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء ، والحياء . فأما السخاء فهو الذى أطلق مافى يديك ، وأما الحياء فهو الذى يمنعك عن تبليغنا ماأنت عليه . وقد أمرت لك بمائة ألف درهم . فإن كنت قد أصبت ، فازدد فى بسط يدك . وإن لم أكن قد أصبت ، فجنايتك على نفسك ، وأنت حدثتنى وكنت على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحق ، عن الزهرى ، عن أنس ، أن النبى صلى الله عليه وسلم [١] قال للزبير بن العوام « يَازُبَيْرُ اعْلَمْ أَنَّ مَفَاتِيحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ فَمَنْ كَثَّرَ كَثَّرَ لَهُ وَمَنْ قَلَّلَ قَلَّلَ لَهُ » وأنت أعلم . قال الواقدى ، فو الله لمذاكرة المأمون إياى بالحديث ، أحب إلىّ من الجائزة ، وهى مائة ألف درهم وسأل رجل الحسن بن على رضى الله عنهما حاجة ، فقال له ياهذا ، حق سؤالك إياى يعظم لدىّ ، ومعرفتى بما يجب لك تكبر علىّ ، ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله تعالى قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك . فإن قبلت الميسور ، ورفعت عنى مؤنة الاحتيال ، والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك ، فعلت . فقال يا بن رسول الله ، أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله ، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها . فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم . فأحضر خمسين ألفا . قال فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال هى عندى . قال أحضرها . فأحضرها . فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل ، وقال هات من يحملها لك . فأتاه بحمالين ، فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين . فقال له مواليه ، والله ماعندنا درهم فقال أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم

---

(١) حديث أنس يازبير أعلم ان مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ـ الحديث : وفى أوله قصة مع المأمون الدارقطنى فيه وفى إسناده الواقدى عن محمد بن إسحاق عن الزهرى بالعنعنة ولا يصح

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة . فقالوا إن لنا جاراً صواماً قواماً، يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه ، وهو فقير ، وليس عنده ما يجهزها به . فقام عبد الله بن عباس ، فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقا . فأخرج منه ست بدر . فقال احملوا . فحملوا . فقال ابن عباس ، ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه . ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها ، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر ، وعبد الحميد بن سعد أميرهم ، فقال ، والله لأعلمن الشيطان أني عدوه . فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حليّ نسائه ، وقيمتها خمسمائة ألف ألف . فلما تعذر عليه ارتجاعها ، كتب إليهم ببيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا ، فقال له رجل ، بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا . فقال قد فعلت . وحقه لأعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل

وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فمدحه بعض الشعراء . فقال للشاعر ، والله ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدمني إلى القاضي ، وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم ، حتى أقر لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسا . ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة ، فحضر بابه شاعر ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن . فلم يتهيأ له . فقال يوما لبعض خدام معن ، إذا دخل الأمير البستان فعرفني . فلما دخل الأمير البستان أعلمه . فكتب الشاعر بيتا على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان . وكان معن على رأس الماء . فلما بصر بالخشبة ، أخذها وقرأها ، فإذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فمالي إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعي بالرجل . فقال له كيف قلت ؟ فقاله . فأمر له بعشر بدر فأخذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط

وقرأها ، ودعا بالرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم . فلما أخذها الرجل ، تفكر ، و خاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج . فلما كان فى اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، ودعا بالرجل ، فطلب فلم يوجد . فقال معن ، حق على أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار

وقال أبو الحسن المدائنى ، خرج الحسن ، والحسين ، وعبد الله بن جعفر حجاجا . ففاتهم أثقالهم . فجاعوا وعطشوا . فمروا بعجوز فى خبائها ، فقالوا هل من شراب ؟ فقالت نعم فأناخوا إليها ، وليس لها إلا شويهة فى كسر الخيمة . فقالت احلبوها ، وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك . ثم قالوا لها ، هل من طعام ؟ قالت لا إلا هذه الشاة . فليذبحها أحدكم ، حتى أهيء لكم ما تأكلون . فقام إليها أحدهم ، وذبحها ، وكشطها . ثم هيأت لهم طعاما . فأكلوا ، وأقاموا حتى أبردوا . فلما ارتحلوا ، قالوا لها ، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعنا سالمين ، فألمى بنا ، فإنا صانعون بك خيرا . ثم ارتحلوا . وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة ، فغضب الرجل ، وقال ويلك ، تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش ! قال ثم بعد مدة ، ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ، ويتعيشان بثمنه . فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن على جالس على باب داره ، فعرف العجوز ، وهي له منكرة . فبعث غلامه فدعا بالعجوز ، وقال لها ياأمة الله ، أتعرفيني ؟ قالت لا . قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا . فقالت العجوز بأبى أنت وأمى أنت هو ؟ قال نعم . ثم أمر الحسن ، فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين . فقال لها الحسين ، بكم وصلك أخي ؟ قالت بألف شاة وألف دينار . فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر . فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت بألفى شاة وألفى دينار . فأمر لها عبد الله بألفى شاة وألفى دينار ، وقال لها لو بدأت بى لأتعبتهما . فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة الآف شاة ، وأربعة الآف دينار

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله ، وهو وحده . فقام إليه غلام من ثقيف ، فمشى إلى جانبه . فقال له عبد الله ، ألك حاجة ياغلام ؟ قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك ، فقلت أقيك بنفسى ، وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه . فأخذ

عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله ؛ ثم دعا بألف دينار ، فدفعها إلى الغلام ، وقال استنفق هذه ، فنعم ماأدبك أهلك . وحكى أن قوما من العرب ، جاؤا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره ، وباتوا عنده . وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد . فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له ، هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي ؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين . فقال له في النوم نعم . فباعه في النوم بعيره بنجيبه . فلما وقع بينهما العقد ، عمد هذا الرجل إلى بعيره ، فنحره في النوم . فانتبه الرجل من نومه ، فإذا الدم يثج من نحر بعيره . فقام الرجل ، فنحره ، وقسم لحمه ، فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ، ثم رحلوا وساروا . فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق ، استقبلهم ركب . فقال رجل منهم ، من فلان بن فلان منكم ؟ باسم ذلك الرجل . فقال أنا . فقال هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر . قال نعم ، بعت منه بعيري بنجيبه في النوم . فقال خذ هذا نجيبه . ثم قال ، هو أبي ، وقد رأيته في النوم ، وهو يقول إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان ، وسماه . وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضر به المرض . فقال ياهذا أعنا على الدهر . فقال الرجل لغلامه ، مابقي معك من النفقة فادفعه إليه . فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم . فذهب لينهض ، فلم يقدر من الضعف فبكى . فقال له الرجل ، مايبكيك ، لعلك استقللت ماأعطيناك ؟ قال لا . ولكن ذكرت ماتأكل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر ، من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق ، بتسعين ألف درهم . فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله ، مالهؤلاء ؟ قالوا يبكون لدارهم . فقال ياغلام ، ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا

وقيل بعث هارون الرشيدى إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار . فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأنفذ إليه ألف دينار . فغضب هارون وقال ، أعطيته خمسمائة ، وتعطيه ألفا ، وأنت من رعيتي ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة ، مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئا من عسل . فأمر

لها بزق من عسل . فقيل له إنها كانت تقنع بدون هـذا . فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم، حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا . وقال الأعمش ، اشتكت شاة عندى ، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ، ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه ، فإذا خرج قال ، خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلىّ فى علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ

وقال عبد الملك بن مروان ، لأسماء بن خارجة ، بلغنى عنك خصال ، فحدثنى بها . فقال هى من غيرى أحسن منها منى . فقال عزمت عليك إلا حدثتنى بها . فقال ياأمير المؤمنين ما مددت رجلى بين يدى جليس لى قط ، ولا صنعت طعاما قط ، فدعوت عليه قوما ، إلا كانوا أمن على منى عليهم . ولا نصب لى رجل وجهه قط ، يسألنى شيئا ، فاستكثرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد ، على سليمان بن عبدالملك ، وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا ، كتب لمن سأله صكا على نفسه ، حتى يخرج عطوه فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

إنى سمعت مع الصباح مناديا يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال ، ماحاجتك ؟ قال دينى قال وكم هو؟ قال ثلاثون ألف دينار . قال لك دينك ومثله

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء . قال فانكسرت درجته بالعشى ، لكثرة من زاره وعاده . وعن أبى إسحاق قال ، صليت الفجر فى مسجد الأشعث بالكوفة ، أطلب غريما لى . فلما صليت ، وضع بين يدى حلة ونعلان . فقلت لست من أهل هذا المسجد . فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندى ، قدم البارحة من مكة ، فأمر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونعلين . وقال الشيخ أبو سعد الخركوشى النيسابورى رحمه الله ، سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعى المجاور بمكة يقول ، كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود . قال فجئت إليه ، وقلت

له وُلدلى مولود ، وليس معى شيء . فقام معى ، ودخل على جماعة ، فلم يفتح بشيء . فجاء إلى قبر رجل ، وجلس عنده ، وقال رحمك الله ، كنت تفعل وتصنع ، وإنى درت اليوم على جماعة ، فكلفتهم دفع شيء لمولود ، فلم يتفق لى شيء . قال ثم قام ، وأخرج دينارا ، وقسمه نصفين ، وناولنى نصفه . وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشيء . قال فأخذته وانصرفت ، فأصلحت مااتفق لى به ، قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه ، فقال سمعت جميع ما قلت ، وليس لنا إذن فى الجواب ،ولكن أحضر منزلى ، وقل لأولادى يحفروا مكان الكانون ، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار،فاحملها إلى هذا الرجل . فلما كان من الغد ، تقدم إلى منزل الميت ، وقص عليهم القصة ، فقالوا له اجلس . وحفروا الموضع ، وأخرجوا الدنانير ، وجاؤابها ، فوضعوها بين يديه . فقال هذا مالكم ، وليس لرؤياى حكم .فقالوا هو يتسخى ميتا ، ولا نتسخى نحن أحياء ! فلما ألحوا عليه ، حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود ، وذكر له القصة . قال فأخذ منها دينارا ، فكسره نصفين ، فأعطاه النصف الذى أقرضه ، وحمل النصف الآخر ، وقال يكفينى هذا وتصدق به على الفقراء . فقال أبو سعيد ، فلا أدرى أي هؤلاء أسخى .

وروى أن الشافعي رحمه الله ، لما مرض مرض موته بمصر ، قال مروافلانا يغسلنى . فلما توفى ، بلغه ، خبر وفاته ، فحضر وقال ، ائتونى بتذكرته . فأتى بها ، فنظر فيها ، فإذا على الشافعى سبعون ألف درهم دين . فكتبها على نفسه ، وقضاها عنه ، وقال هذا غسلى إياه . أى أرادبه هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشى ، لما قدمت مصر ، طلبت منزل ذلك الرجل ، فدلونى عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم ، فرأيت فيهم سيما الخير ، وآثار الفضل . فقلت بلغ أثره فى الخير إليهم، وظهرت بركته فيهم ،مستدلا بقوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا [1]) . وقال الشافعى رحمه الله ، لاأزال أحب حماد بن أبى سليمان، لشيء بلغنى عنه . أنه كان ذات يوم راكبا حماره ، فحركه ، فانقطع زره . فمر على خياط، فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره . فقال الخياط ، والله لا نزلت . فقام الخياط إليه ،

(١) الكهف : ٨٢

فسوى زره . فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير ، فسلمها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قلتها . وأنشد الشافعى رحمه الله لنفسه

يالهف قلبي على مال أجود به   على المقلين من أهل المروآت
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني   ماليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال ، أخذ رجل بركاب الشافعى رحمه الله ، فقال ياربيع ، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني . وقال الربيع ، سمعت الحميدى يقول ، قدم الشافعى من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ، فضرب خباءه فى موضع خارج عن مكة ، ونثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه ، يقبض له قبضة ويعطيه ، حتى صلى الظهر ، ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال . أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال . وكان قلما يمسك شيئامن سماحته . فقلت له ينبغي أن تشترى بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك . قال فخرج ، ثم قدم علينا ، فسألته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها ، لمعرفتي بأصلها ، وقد وقف أكثرها . ولكني بنيت بمنى مضربا ، يكون لأصحابنا إذاحجوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أري نفسي تتوق إلى أمور   يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل   ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي ، دخل أبي على المأمون ، فوصله بمائة ألف درهم . فلماقام من عنده تصدق بها . فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه ، عاتبه المأمون في ذلك . فقال ياأمير المؤمنين ، منعُ الموجود سوءُ ظن بالمعبود . فوصله بمائة ألف أخرى

وقام رجل إلى سعيد بن العاص ، فسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم . فبكي . فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكى على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى

ودخل أبو تمام على ابراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها ، فوجده عليلا . فقبل منه المدحة ، وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال عسي أن أقوم من مرضي فأكافئه . فأقام شهرين فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

إن حراما قبول مدحتنا   وترك مانرتجي من الصفد

كما الدراهم والدنانير فى البيـ ـع حرام إلا يدا بيـــد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم : قال لحاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال شهرين . قال أعطه ثلاثين ألفا ، وجئني بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنـا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنـا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم . فخرج عثمان يوما إلى المسجد ، فقال له طلحة ، قد تهيأ مالك فاقبضه . فقال هو لك يا أبا محمد ، معونة لك على مروءتك .

وقالت سعدى بنت عوف ، دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثقلا . فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غمني . فقلت وما يغمك : أدع قومك . فقال يا غلام . عليّ بقومى فقسمه فيهم . فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربعمائة ألف . وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله وتقرب إليه برحم . فقال إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك . إن لى أرضا قد أعطانى بها عثمان ثلثمائة ألف ، فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ، ودفعت إليك الثمن فقال الثمن . فباعها من عثمان ، ودفع إليه الثمن . وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما . فقيل ما يبكيك ؟ فقال لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهاننى .

وأتى رجل صديقا له ، فدق عليه الباب ، فقال ما جاء بك ؟ قال عليّ أربعمائة درهم دين . فوزن أربعمائة درهم ، وأخرجها إليه ، وعاد يبكى . فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله ، حتى احتاج إلى مفاتحتى . فرحم الله من هذه صفاتهم ، وغفر لهم أجمعين

بيان

ذم البخل

قال الله تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [١]) وقال تعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٢]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ

---

(١) التغابن : ١٦ (٢) آل عمران : ١٨٠

مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ [1]) . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ خَبٌّ وَلاَ خَائِنٌ وَلاَ سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وفي رواية « وَلاَ جَبَّارٌ » وفي رواية « وَلاَ مَنَّانٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ ثَلاَثَةً الشَّيْخَ الزَّانِيَ وَالْبَخِيلَ الْمَنَّانَ وَالْمُعِيلَ الْمُخْتَالَ » وقال صلى الله عليه وسلم [6] « مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ ثَدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ شَيْئاً إِلاَّ سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلاَّ قَلَصَتْ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِتَرَاقِيهِ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم [7] « خَصْلَتَانِ لاَ تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث إياكم والشح ـ الحديث : مسلم من حديث جابر بلفظ واتقوا الشح فان الشح ـ الحديث : ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو إياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا

(٢) حديث إياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم : الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ حرماتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة وفي رواية ولا منان : أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا منان فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه لا يدخل الجنة سيء الملكة

(٤) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم في العلم

(٥) حديث إن الله يبغض ثلاثا الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال : الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل المنان وقال فيه الغني الظلوم وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال وسنده ضعيف

(٦) حديث مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٧) حديث خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب

---

(١) النساء : ٣٧

(١) « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ. إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَاحِشَ وَلاَ الْمُتَفَحِّشَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَبُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ ». وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبكته باكية ، فقالت واشهيداه · فقال صلى الله عليه وسلم (٤) « وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّهُ شَهِيدٌ فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لاَ يَعْنِيهِ أَوْ يَبْخَلُ بِمَا لاَ يَنْقُصُهُ » وقال جبير ابن مطعم ، (٥) بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة ، فخطفت رداءه · فوقف صلى الله عليه وسلم فقال « أَعْطُونِى رِدَائِى فَوَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِى عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاةِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُونِى بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً »

وقال عمر رضي الله عنه ، (٦) قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما . فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم. فقال « إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِى بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِى بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِى وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ »

---

(١) حديث اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن ـ الحديث : البخارى من حديث سعد وتقدم فى الأذكار

(٢) حديث إياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ـ الحديث : الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا وكذا رواه أبو داود مقتصرا على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش

(٣) حديث شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع : أبو داود من حديث جابر بسند جيد

(٤) حديث وما يدريك انه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه : أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وللبيهقى فى الشعب من حديث أنس ان أمه قالت لينهك الشهادة وهو عند الترمذى الا أن رجلا قال له أبشر بالجنة

(٥) حديث جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به ـ الحديث : البخارى وتقدم فى أخلاق النبوة

(٦) حديث عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما ـ الحديث : وفيه ولست بباخل مسلم

وقال أبو سعيد الخدرى ، [١] دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألاه ثمن بعير . فأعطاهما دينارين . فخرجا من عنده ، فلقيهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأثنيا وقالا معروفا ، وشكرا ما صنع بهما . فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا . فقال صلى الله عليه وسلم « لَكِنْ فُلَانٌ أَعْطَيْتُهُ مَا بَيْنَ عَشَرَةٍ إِلَى مِائَةٍ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي فَيَنْطَلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَأَبِّطُهَا وَهِيَ نَارٌ » فقال عمر ، فلم تعطيهم ماهو نار ؟ فقال « يَأْبَوْنَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى اللهُ لِيَ الْبُخْلَ »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « الْجُودُ مِنْ جُودِ اللهِ تَعَالَى فَجُودُوا يَجُدِ اللهُ لَكُمْ أَلَا إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْجُودَ فَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ طُوبَى وَشَدَّ أَغْصَانَهَا بِأَغْصَانِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَلَا إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَخَلَقَ الْبُخْلَ مِنْ مَقْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ أَلَا إِنَّ الْبُخْلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكُفْرُ فِي النَّارِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَلِجُ الْجَنَّةَ إِلَّا سَخِيٌّ وَالْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلَا يَلِجُ النَّارَ إِلَّا بَخِيلٌ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] لوفد بنى لحيان « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي لَحْيَانَ » قالوا سيدنا جدّ بن قيس ، إلا أنه رجل فيه بخل . فقال صلى الله عليه وسلم « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ

---

(١) حديث أبى سعيد فى الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفا - الحديث : وفيه ويأبى الله لى البخل رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد انهما سألاه ثمن بعير . ورواه البزار من رواية أبى سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات

(٢) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم - الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أقف له على اسناد

(٣) حديث السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج فى الجنة الاسخى - الحديث : تقدم دون قوله فلا يلج فى الجنة الى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده

(٤) حديث أبى هريرة من سيدكم يابنى لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس - الحديث : الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ يابنى سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء وأما الرواية التى قال فيها سيدكم عمرو ابن الجموح فرواها الطبرانى فى الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن

الْبُخْلِ وَلَـكِنْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ » وفى رواية ، أنهم قالوا سيدنا جد بن قيس فقال « بِمَ تُسَوِّدُونَهُ ؟ » قالوا إنه أكثرنا مالا ، وإنا على ذلك لنرى منه البخل . فقال عليه السلام « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ لَيْسَ ذَلِكَ سَيِّدَكُمْ » قالوا فمن سيدنا يارسول الله ؟ قال « سَيِّدُكُمْ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ » . وقال على رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْبَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ السَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « السَّخِيُّ الْجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ »

وقال أيضا ، قال صلى الله عليه وسلم [٣] « الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ » وقال أيضا [٤] « خَصْلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ ، الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ بَخِيلاً وَلَا جَبَاناً » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « يَقُولُ قَائِلُكُمُ الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ وَأَيُّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلَا بَخِيلٌ »

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٧] كان يطوف بالبيت ، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول ، بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى ذنبي . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا ذَنْبُكَ صِفْهُ لِي » فقال هو أعظم من أن أصفه لك . فقال « وَيْحَكَ ذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْأَرَضُونَ ؟ » فقال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْجِبَالُ ؟ » قال بل ذنبي أعظم

---

(١) حديث على ان الله ليبغض البخيل فى حياته السخى عند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أجد له اسنادا

(٢) حديث أبى هريرة السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل الترمذى بلفظ ولجاهل سخى وبقية حديث ان السخى قريب من الله وقد تقدم

(٣) حديث أبى هريرة لا يجتمع الشح والايمان فى قلب عبد النسائى وفى اسناده اختلاف

(٤) حديث خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن ـ الحديث . الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم

(٥) حديث لا ينبغى لمؤمن أن يكون جبانا ولا بخيلا لم أره بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح ـ الحديث : وفيه لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل لم أجده بتمامه والترمذى من حديث أبى بكر لا يدخل الجنة بخيل وقد تقدم

(٧) حديث كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لى الحديث : فى ذم البخل وفيه قال إليك عنى لا تحرقنى بنارك ـ الحديث بطوله وهو باطل لا أصل له

يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْبِحَارُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ السَّمٰوَاتُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْعَرْشُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ اللهُ » قال بل الله أعظم وأعلى قال « وَيْحَكَ فَصِفْ لِي ذَنْبَكَ » قال يارسول الله ، إنى رجل ذو ثروة من المال ، وإن السائل ليأتينى يسألنى ، فكأنما يستقبلنى بشعلة من نار . فقال صلى الله عليه وسلم « إِلَيْكَ عَنِّي لَا تُحْرِقْنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْهِدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ لَوْ قُمْتَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَيْ أَلْفِ عَامٍ ثُمَّ بَكَيْتَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ دُمُوعِكَ الْأَنْهَارُ وَتُسْقَى بِهَا الْأَشْجَارُ ثُمَّ مُتَّ وَأَنْتَ لَئِيمٌ لَأَكَبَّكَ اللهُ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبُخْلَ كُفْرٌ وَأَنَّ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ [1]) (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [2])

الآثار : قال ابن عباس رضى الله عنهما ، لما خلق الله جنة عدن ، قال لها تزيني . فتزينت ثم قال لها أظهرى أنهارك ، فأظهرت عين السلسبيل ، وعين الكافور ، وعين التسنيم . فتفجر منها فى الجنان أنهار الخمر ، وأنهار العسل واللبن . ثم قال لها أظهرى سررك ، وحجالك وكراسيك ، وحليك ، وحللك ، وحور عينك . فأظهرت . فنظر إليها فقال تكلمى . فقالت طوبى لمن دخلنى . فقال الله تعالى ، وعزتى لأسكنك بخيلا

وقالت أم البنين ، أخت عمر بن عبد العزيز ، أف للبخيل . لو كان البخل قيصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء ، لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر ، كان يقال إذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم ، وجعل أرزاقهم بأيدى بخلائهم . وقال على كرم الله وجهه فى خطبته إنه سيأتى على الناس زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يده ، ولم يؤمر بذلك . قال الله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم [3]) وقال عبد الله بن عمرو ، الشح أشد من البخل . لأن الشحيح هو الذى يشح على ما فى يد غيره حتى يأخذه ، ويشح بما فى يده فيحبه والبخيل

---

(١) محمد : ٣٨ (٢) التغابن : ١٦ (٣) البقرة : ٢٣٧

هو الذى يبخل بما فى يده . وقال الشعبي ، لاأدرى أيهما أبعدغورا فى نارجهنم. البخل أو الكذب

وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند ، وفيلسوف الروم . فقال للهندى تكلم . فقال خير الناس من ألفى سخيا ، وعند الغضب وقورا ، وفى القول متأنيا ، وفى الرفعة متواضعا، وعلى كل ذى رحم مشفقا . وقام الرومى فقال ، من كان بخيلا ورث عدوه ماله ، ومن قل شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل النميمة يموتون فقراء ، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك فى قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا [١]) قال البخل . أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة فى سبيل الله ، فهم لايبصرون الهدى . وقال كعب ، ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان ، اللهم عجل لممسك تلفا ، وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعى ، سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال ، لقد صغر فلان فى عينى، لعظم الدنيا فى عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، لا أرى أن أعدل بخيلا ، لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه ، خيفة من أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة

وقال على كرم الله وجهه ، والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ [٢]) وقال الجاحظ ، مابقى من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث ، البخيل لا غيبة له . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ إِذاً لَبَخِيلٌ » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [٢] فقالوا صوامة ، قوامة ، إلا أن فيها بخلا . قال « فَمَا خَيْرُهَا إِذاً »

وقال بشر ، النظر إلى البخيل يقسى القلب ، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين

وقال يحيى بن معاذ، مافى القلب للأسخياء إلا حب، ولو كانوا فجارا، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا .وقال ابن المعتز ، أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه .ولقى يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس فى صورته فقال له ياابليس أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال أحب

---

(٢) حديث مدحت امرأة عند النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة الا أن فيها بخلا ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

[١] يس : ٨ [٢] التحريم : ٣

الناس إلىّ المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلىّ الفاسق السخي . قال لأن البخيل قد كفاني بخله ، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله . ثم ولى وهو يقول ، لولا أنك يحيي لما أخبرتك

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه ، وقدم إليه طباهجة ببيض فأكل منه ، فأكثر . وجعل يشرب الماء ، فانتفخ بطنه ، ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى . فلما جهده الأمر ، وصف حاله للطبيب ، فقال لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت فقال هاه ، أتقيأ طباهجة ببيض ، الموتُ ولا ذلك - وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه . فجلس الأعرابي . فقال له الرجل ، هل تحسن من القرءان شيئا ؟ قال نعم فقرأ (وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ [1]) فقال وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك

ودعا بعضهم أخاله ، ولم يطعمه شيئا - فحبسه إلى العصر ، حتى اشتد جوعه ، وأخذه مثل الجنون . فأخذ صاحب البيت العود ، وقال له بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك ؟ قال صوت المقلى

ويحكى أن محمد بن يحيي بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه . فقال له قائل ، صف لى مائدته . فقال هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش . قيل فمن يحضرها ؟ قال الكرام الكاتبون ، قال فما يأكل معه أحد ؟ قال بلى الذباب : فقال سوأتك بدت ، وأنت خلص به ، وثوبك مخرق . قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد إلى النوبة ، مملوأ إبرا ، ثم جاءه جبريل ، وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام ، يطلبون منه إبرة ، ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ، ما فعل - ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه ، فإذا قرم إليه ، أرسل غلامه ، فاشترى له رأسا . فأكله فقيل له نراك لا تأكل إلا الرؤس في الصيف والشتاء ، فلم تختار ذلك ؟ قال نعم ، الرأس أعرف سعره ، فآمن خيانة الغلام ، ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام ،

---

(١) التين : ١

فيقدرأن يأكل منه،إن مس عينا،أوأذنا ، أوخدا ،وقفت على ذلك. وآكل منه ألوانا عينه لونا،
وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصمته لونا،ودماغه لونا،وأكفى مؤنة طبخه.فقداجتمعت لى فيه مرافق

وخرج يوما يريدالخليفة المهدى،فقالت له امرأة من أهله، مالى عليك إن رجعت بالجائزة ؟
فقال إن أعطيت مائة ألف،أعطيتك درهما. فأعطى ستين ألفا،فأعطاها أربعة دوانق. واشترى
مرة لحما بدرهم،فدعاه صديق له،فرداللحم إلى القصاب بنقصان دانق،وقال أكره الإسراف

وكان للأعمش جار ، وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول ، لودخلت فأكلت
كسرة وملحا ، فيأبى عليه الأعمش . فعرض عليه ذات يوم ، فوافق جوع الأعمش ، فقال
سربنا . فدخل منزله ، فقرب إليه كسرة وملحا . فجاء سائل ، فقال له رب المنزل ، بورك
فيك فأعادعليه المسألة فقال له بورك فيك. فلما سأل الثالثة ، قال له اذهب وإلا والله خرجت
إليك بالعصا ، قال فناداه الأعمش وقال . اذهب ، ويحك ، فلا والله ما رأيت أحدا أصدق
مواعيد منه ، هو منذمدة يدعونى على كسرة وملح ، فلا والله ما زادنى عليهما

بيان
الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار .
وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه . وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه لمحتاج ،
أو لغير محتاج . والبذل مع الحاجة أشد . وكما أن السخاوة قد تنتهى إلى أن يسخو الإنسان
على غيره مع الحاجة ، فالبخل قد ينتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة . فكم من بخيل
يمسك المال ويمرض ، فلا يتداوى . ويشتهي الشهوة ، فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن
ولو وجدها مجانا لأكلها . فهذا يخيل على نفسه مع الحاجة . وذلك يؤثر على نفسه غيره
مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ، فإن الأخلاق عطايا ، يضعها الله حيث يشاء

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال
(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1]) وقال النبي صلي الله عليه وسلم

[1] الحشر : ٩

« أيُّمَا امْرِىءٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفِرَ لَهُ »[١] وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] ثلاثة أيام متوالية ، حتى فارق الدنيا . ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا[٣] . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يديه إلى الطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إِلَى ضَيْفِكُمْ » ونزلت (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[١]) . فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سماه الله تعالى عظيما ، فقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[٢])

وقال سهل بن عبد الله التستري ، قال موسى عليه السلام ، يارب ، أرنى بعض درجات محمد صلى عليه وسلم وأمته . فقال ياموسى ، إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازله ، جليلة عظيمة ، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي . قال فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى . فقال يارب ، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال بخلق اختصصته به من بينهم ، وهو الإيثار ياموسى ، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره ، إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته من جنتي حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم

---

(١) حديث أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له : ابن حيان في الضعفا . وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث عائشة ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكنا نؤثر على أنفسنا : البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز بر حتى مضى لسبيله وللشيخين ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم من طعام

(٣) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الانصار فذهب به الى أهله الحديث : في نزول قوله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) الحشر : ٩ (٢) القلم : ٤

وفيه غلام أسود يعمل فيه . إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبدُ الله ينظر إليه . فقال ياغلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال مارأيت . قال فلِمَ آثرت به هذا الكلب ؟ قال ماهي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء ؟ إن هذا الغلام لأسخى مني . فاشترى الحائط والغلامَ ومافيه من الآلات، فأعتق الغلام، ووهبه منه.

وقال عمر رضي الله عنه ، أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخي كان أحوج مني إليه ، فبعث به إليه . فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى تداوله سبعة أبيات ، ورجع إلى الأول .

وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم،[1] فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام ، إني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر . فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة ، وأحباها ، فأوحى الله عز وجل إليهما، أفلا كنتما مثل على ابن أبي طالب ، آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض ، فاحفظاه من عدوه . فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه . وجبريل عليه السلام يقول ، بخ بخ من مثلك ياابن أبي طالب . والله تعالى يباهي بك الملائكة ، فأنزل الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[2]) . وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا ، وكانوا في قرية بقرب الري ، ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم . فكسروا الرغفان

---

(١) حديث بات علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله الى جبريل وميكائيل انى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ـ الحديث : في نزول قوله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله أحمد مختصرا من حديث ابن عباس شرى على نفسه فلبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ـ الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل وفيه أبو بلج مختلف فيه ـ والحديث : منكر

(٢) البقرة : ٢٠٧

وأطفؤا السراج ، وجلسوا للطعام . فلما رفع ، فإذا الطعام بحاله ، ولم يأكل أحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل ، وليس عنده شيء . فنزع خشبة من سقف بيته ، فأعطاه ، ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي ، انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ، ومعي شيء من ماء ؛ وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه . فإذا أنا به . فقلت أسقيك ؟ فأشار إلىّ أن نعم . فإذا رجل يقول آه . فأشار ابن عمى إلىّ أن انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال آه . فأشار هشام انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات . فرجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو قد مات ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقال عباس بن دهقان ، ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ، إلا بشر بن الحارث ، فإنه أتاه رجل فى مرضه ، فشكا إليه الحاجة ، فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبا فمات فيه .

وعن بعض الصوفية ، قال كنا بطرسوس ، فاجتمعنا جماعة ، وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد . فلما بلغنا ظاهر الباب ، إذا نحن بدابة ميتة ، فصعدنا إلى موضع عال ، وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة ، رجع إلى البلد ، ثم عاد بعد ساعة ، ومعه مقدار عشرين كلبا . فجاء إلى تلك الميتة ، وقعد ناحية ، ووقعت الكلاب فى الميتة . فما زالت تأكلها ، وذلك الكلب قاعد ينظر إليها ، حتى أكلت الميتة . وبقى العظم ، ورجعت الكلاب إلى البلد . فقام ذلك الكلب ، وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ، ثم انصرف

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار ، وأحوال الأولياء ، فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

بيان

حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ، أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا هو يرى نفسه سخيا ، وربما يراه غيره بخيلا وقد يصدر فعل من إنسان ، فيختلف فيه الناس ، فيقول قوم هذا بخل ، ويقول آخرون

ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ، ولأجله يحفظ المال ويمسكه فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا ، فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك ، فما البخل الذى يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول

قد قال قائلون حد البخل منع الواجب . فكل من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخيل وهذا غير كاف . فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب ، والخبز للخباز ، بنقصان حبة أو نصف حبة ، فإنه يعد بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ، ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه ، أو تمرة أكلوها من ماله ، يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف ، فحضر من يظن أنه يأكل معه ، فأخفاه عنه ، عد بخيلا

وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية . وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية ، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة ، كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب مافوق ذلك . وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ، وهو مايستغرق جميع ماله ، أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل

وكذلك تكلموا فى الجود ، فقيل : الجود عطاء بلامن ، وإسعاف من غير روية

وقيل: الجود عطاء من غير مسألة ، على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل ، الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى ، والعبد لله عز وجل ، فيعطى عبد الله مال الله ؟ على غير رؤية الفقر . وقيل . من أعطى البعض ، وأبقى البعض ، فهو صاحب سخاء . ومن بذل الأكثر ، وأبقى لنفسه شيئا . فهو صاحب جود . ومن قاسى الضر ، وآثر غيره بالبلغة ، فهو صاحب إيثار . ومن لم يبذل شيئا ، فهو صاحب بخل

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل . بل نقول ، المال خلق لحكمة ومقصود ، وهو صلاحه لحاجات الخلق . ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ماخلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ،

وبينهما وسط وهو المحمود ، وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذلم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء . وقد قيل له (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ[1])وقال تعالى(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً[2]) . فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض . وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ، مالم يكن قلبه طيبا به ، غير منازع له فيه . فإن بذل فى محل وجوب البذل ، ونفسه تنازعه، وهو يصابرها فهو متسخ . وليس بسخي ، بل ينبغي أن لايكون لقلبه علاقة مع المال ، إلا من حيث يراد المال له ، وهو صرفه إلي مايجب صرفه إليه . فإن قلت : فقدسار هذاموقوفا على معرفة الواجب، فما الذى يجب بذله . فأقول ، إن الواجب قسمان ، واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخي هو الذى لايمنع واجب الشرع ، ولا واجب المروءة فإن منع واحدا منهما ، فهو بخيل . ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل . كالذى يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخي بالتكلف . أو الذى يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل . وأما واجب المروءة ، فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات . فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله ، استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة . ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله ، وأقاربه ، ومماليكه ، مالا يستقبح مع الأجانب . ويستقبح من الجار ، مالا يستقبح مع البعيد . ويستقبح فى الضيافة من المضايقة ، مالا يستقبح فى المعاملة . فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة ، فى ضيافة ، أو معاملة . وبما به المضايقة ، من طعام ، أو ثوب . إذ يستقبح فى الأطعمة مالا يستقبح فى غيرها . ويستقبح فى شراء الكفن مثلا ، أو شراء الأضحية ، أو شراء خبز الصدقة ، مالا يستقبح فى غيره من المضايقة : وكذلك بمن معه المضايقة ، من صديق ، أو أخ ، أو قريب ، أو زوجة ، أو ولد ، أو أجنبي . وبمن منه المضايقة ، من صبي أو امرأة ، أو شيخ ، أو شاب ، أو عالم ، أو جاهل ، أو موسر ، أو فقير .

(1) الإسراء : ٢٩ (2) الفرقان : ٦٧

فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع ، إما بحكم الشرع ، وإما بحكم المروءة . وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال . فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال . فمانع الزكاة والنفقة بخيل : وصيانة المروءة أهم من حفظ المال . والمضايق فى الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه ، هاتك ستر المروءة لحب المال ، فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ، ويحفظ المروءة ، ولكن معه مال كثير قد جمعه . ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين . فقد تقابل غرض حفظ المال ، ليكون له عدة على نوائب الزمان . وغرض الثواب ، ليكون رافعا لدرجاته فى الآخرة . وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس ، وليس ببخل عند عوام الخلق . وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا ، فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مُهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ، إن كان فى جواره محتاج فمنعه وقال ، قد أديت الزكاة الواجبة ، وليس على غيرها : ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج ، وصلاح دينه ، واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل .

نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء : ما لم يبذل زيادة على ذلك ، لطلب الفضيلة ، ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال ، حيث لا يوجبه الشرع ، ولا تتوجه إليه الملامة فى العادة فهو جواد ، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر . وبعض الناس أجود من بعض . فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة ، هو الجود . ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ، ولا يكون عن طمع ، ورجاء خدمة ، أو مكافأة أو شكر ، أو ثناء . فإن من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع ، وليس بجواد . فإنه يشترى المدح بماله . والمدح لذيذ ، وهو مقصود فى نفسه . والجود هو بذل الشىء من غير عوض هذا هو الحقيقة ، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى . وأما الآدمى ، فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشىء إلا لغرض . ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب فى الآخرة ، أو اكتساب فضيلة الجود ، وتطهير النفس عن رذالة البخل ، فيسمى جوادا . فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا ، أو من ملامة الخلق ، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه ، فكل ذلك

ليس من الجود، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهى أعواض معجلة له عليه، فهو معتاض لاجواد ، كما روى عن بعض المتعبدات ، أنها وقفت على حبان بن هلال ، وهو جالس مع أصحابه ، فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها سلى عماشئت ،وأشاروا إلى حبان ابن هلال . فقالت ماالسخاء عندكم ؟ قالوا العطاء ، والبذل ، والإيثار . قالت هذا السخاء فى الدنيا ؟ فما السخاء فى الدين ؟ قالوا أن نعبد الله سبحانه ، سخية بها أنفسنا ، غير مكرهة قالت فتريدون على ذلك أجرا ؟ قالوا نعم ، قالت ولمَ ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها . قالت سبحان الله ، فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة ، فبأى شىء تسخيتم عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت السخاء عندى ، أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته ، غير كارهين ، لاتريدون على ذلك أجرا ، حتى يكون مولاكم يفعل بكم مايشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم ، فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشىء ؟ إن هذا فى الدنيا لقبيح . وقالت بعض المتعبدات ، أتحسبون أن السخاء فى الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندى فى المهج . وقال المحاسبى ، السخاء فى الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ، ويسخو قلبك ببذل مهجتك ، وإهراق دمك لله تعالى ، بسماحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا . وإن كنت غير مستغن عن الثواب . ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء ، بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك مالا تحسن أن تختاره لنفسك

بيان

علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان : أحدهما حب الشهوات التى لاوصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل . فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ، ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ القدر الذى يحتاج إليه فى يوم ، أو فى شهر ، أو فى سنة ، قريب . وإن كان قصير الأمل ، ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه ،

فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام [١] « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر ، وقلة الثقة بمجيء الرزق ، قوى البخل لا محالة .

السبب الثانى : أن يحب عين المال . فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره ، إذا اقتصر على ماجرت به عادته بنفقته ، وتفضل آلاف ، وهو شيخ بلا ولد ، ومعه أموال كثيرة ، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ، ولا بمداواة نفسه عند المرض ، بل صار محبا للدنانير ، عاشقا لها ، يلتذ بوجودها فى يده ، وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض ، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة . وهذا مرض للقلب عظيم ، عسير العلاج ، لاسيما فى كبر السن . وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا ، فأحب رسوله لنفسه ، ثم نسى محبوبه ، واشتغل برسوله . فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات . فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ . ثم قد تنسى الحاجات ، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب فى نفسه ، وهو غاية الضلال . بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به . فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة .

فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بمضادة سببها . فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير ، وبالصبر . وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، والنظر فى موت الأقران ، وطول تعبهم فى جمع المال ، وضياعه بعدهم . وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا ، وحاله أحسن ممن ورث . وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده ، يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر . وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية ، وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة فى ذم البخل ، ومدح السخاء ، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ، ونفرة الطبع عنهم ، واستقباحهم له ، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه .

---

(١) حديث الولد مبخلة زاد فى رواية محزنة : ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله محزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبى سعيد والحاكم من حديث الاسود بن خلف واسناده صحيح

فيعلم أنه مستثقل ومستقذر فى قلوب الناس ، مثل سائر البخلاء فى قلبه · ويعالج أيضا قلبه بأن التفكر فى مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق · ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقى يدخره لنفسه فى الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم . فإذا عرف بنور البصيرة ، أن البذل خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلا . فإن تحركت الشهوة ، فينبغى أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ، ويخوفه ،ويصده عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجى كان ذات يوم فى الخلاء ، فدعا تلميذا له ، وقال انزع عنى القميص وادفعه إلى فلان. فقال هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال لم آمن على نفسى أن تتغير ، وكان قد خطر لى بذله

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا · كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق، بالسفر عن مستقره ، حتى إذا سافر وفارق تكلفا، وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه . فكذلك الذى يريد علاج البخل ، ينبغى أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله . بل لو رماه فى الماء كان أولى به من إمساكه أياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه ، أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء ، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا فى حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل ، واكتسب بها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ، ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها. لا ليخلى واللعب ولكن لينفك عن الثدى إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، ينبغى أن يسلط بعضها على بعض ، كما تسلط الشهوة على الغضب ، وتكسر سورته بها . ويسلط الغضب على الشهوة ، وتكسر رعونتها به . إلا أن هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف . فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال ، فلا فائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ، ويزيد فى أخرى مثلها . إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء . فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه . فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء ، فينبغى أن يبذل ، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ، مايقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها . ثم يأكل بعضها بعضا ، حتى ترجع إلى اثنتين ، قويتين ، عظيمتين . ثم لا تزالان تتقاتلان ، إلى أن تغلب إحداها الأخرى ، فتأكلها ، وتسمن بها . ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها ، إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، يمكن أن يسلط بعضها على بعض ، حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى ، إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة ، وهو منع القوت عنها

ومنع القوت عن الصفات ، أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضي لا محالة أعمالا ، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت . مثل البخل ، فإنه يقتضي إمساك المال . فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ، ماتت صفة البخل ، وصار البذل طبعا ، وسقط التعب فيه . فإن علاج البخل بعلم وعمل . فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل ، وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف . ولكن قد يقوى البخل ، بحيث يعمي ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه . وإذا لم تتحقق المعرفة ، لم تتحرك الرغبة ، فلم يتيسر العمل . فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله ، فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية ، في معالجة علة البخل في المريدين ، أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه ، وأخرجه عن جميع ما ملكه . وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه ، أو سجادة يفرح بها ، يأمره بتسليمها إلى غيره ، ويلبسه ثوبا خلقا ، لا يميل إليه قلبه . فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل ، أنس بالدنيا وأحبها . فإن كان له ألف متاع ، كان له ألف محبوب ولذلك إذا سرق كل واحد منه ، ألمت به مصيبة بقدر حبه له . فإذا مات ، نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة ، لأنه كان يحب الكل ، وقد سلب عنه . بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج ، مرصع بالجواهر ، لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا . فقال لبعض الحكماء عنده ، كيف ترى هذا ؟ قال أراه مصيبة أو فقرا قال كيف ؟ قال إن كسر كان مصيبة لا جبر لها ، وإن سرق صرت فقيرا إليه ، ولم تجد مثله

وقد كنت قبل آن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر . ثم اتفق يوما أن كسر أوسرق وعظمت مصيبة الملك عليه ، فقال صدق الحكيم ، ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدنيا . فإن الدنيا عدوّة لأعداء الله ، إذ تسوقهم إلى النار . وعدوّة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها . وعدوّة الله ، إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوّة نفسها ، فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس ، والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال ، وهو بذل الدراهم والدنانير . فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته ، حتى يفنى . ومن عرف آفة المال لم يأنس به ، ولم يفرح به ، ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته . ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل ، لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل ، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه ، فيبذله . بل هو كالماء على شط الدجلة . إذ لا يبخل به أحد ، لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

بيان

مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله

اعلم أن المال كما وصفناه ، خير من وجه ، وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق . ويأخذها الغافل ، فيقتله سمها من حيث لا يدرى . ولا يخلو أحد عن سم المال ، إلا بالمحافظة على خمس وظائف

الأولى : أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لم يحتاج إليه ، حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة ، القادحة فى المروءة ، كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة ، وما يجرى مجراه

الثالثة : فى المقدار الذى يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب . ومعياره الحاجة ، والحاجة ملبس ، ومسكن ، ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات ، أدنى ، وأوسط ، وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة ، كان محقا ،

ويجيء من جملة المحققين . وإن جاوز ذلك ، وقع فى هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد

الرابعة :أن يراعى جهة المخرج ، ويقتصد فى الإنفاق ، غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه . فإن الإثم فى الأخذ من غير حقه ، والوضع فى غير حقه،سواء

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ ، والترك ، والإنفاق ، والإمساك . فيأخذ ما يأخذ ليستعين به علي العبادة . ويترك مايترك زهدا فيه ، واستحقارا له . إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال. ولذلك قال علي رضي الله عنه ، لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض ، وأراد به وجه الله تعالى ، فهو زاهد . ولو أنه ترك الجميع ، ولم يرد به وجه الله تعالى ، فليس بزاهد .

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله ، مقصورة على عبادة ، أو مايعين على العبادة فإن أبعد الحركات عن العبادة ، الأكل وقضاء الحاجة . وهما معينان على العبادة .فإذا كان ذلك قصدك بهما ، صار ذلك عبادة فى حقك . وكذلك ينبغى أن تكون نيتك فى كل مايحفظك ، من قميص ، وإزار ، وفراش ، وآنية . لأن كل ذلك مما يحتاج إليه فى الدين . وما فضل من الحاجة ، ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا يمنعه منه عند حاجته . فمن فعل ذلك ، فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سمها ، فلا تضره كثرة المال . ولكن لايتأتى ذلك إلا لمن رسخ فى الدين قدمه ، وعظم فيه علمه . والعامي إذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة ، شابه الصبي الذى يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ، ويتصرف فيها ، فيخرج ترياقها ، فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ، ومستلينا جلدها ، فيأخذها اقتداء به ، فتقتله فى الحال .إلا أن قتيل الحية يدرى أنه قتيل ، وقتيل المال قد لايعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية . فقيل

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير ، فى تخطى قلل الجبال، وأطراف البحار،والطرق المشوكة ، فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل فى تناول المال .

بيـان

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر، على الفقير الصابر. وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه. ولكنا فى هذا الكتاب، ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة، من غير التفات إلى تفصيل الأحوال. ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضى الله عنه، فى بعض كتبه، فى الرد على بعض العلماء من الأغنياء، حيث احتج بأغنياء الصحابة، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم. والمحاسبي رحمه الله خبر الأمة فى علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه

وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء، بلغنا أن عيسى بن مريم عليه السلام، قال ياعلماء السوء، تصومون، وتصلون، وتصدقون، ولا تفعلون ماتؤمرون، وتدرسون مالا تعملون. فياسوء ماتحكمون. تتوبون بالقول والأمانى، وتعملون بالهوى، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم، وقلوبكم دنسة. بحق أقول لكم، لاتكونوا كالمنخل، يخرج منه الدقيق الطيب، وتبقى فيه النخالة. كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم، ويبقى الغل فى صدوركم. ياعبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته، ولا تنقطع منها رغبته! بحق أقول لكم، إن قلوبكم تبكى من أعمالكم. جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم، والعمل تحت أقدامكم. بحق أقول لكم، أفسدتم آخرتكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة. فأى الناس أخسر منكم؟ لو تعلمون، ويلكم، حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم. مهلا مهلا. ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره، وجوفه وحش مظلم؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشة متعطلة. ياعبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم تدفعكم من خلفكم

حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم

ثم قال الحارث رحمه الله : إخوانى ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا . فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون ، أو يعفو الكريم بفضله . وبعد ،

فإنى رأيت الهالك المؤثر للدنيا، سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم، وفنون المعاصى ، وإلى البوار والتلف مصيره . فرح الهالك برجائه ، فلم تبق له دنياه ، ولم يسلم له دينه . خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . فيالها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلها . ألا فراقبوا الله إخوانى ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه ، من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال ، فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ، ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون .

ويحك أيها المفتون ، إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف ، مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك ، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف ، والزينة ، فقد اغتبت السادة ، ونسبتهم إلى أمر عظيم . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد ازدريت محمدا والمرسلين ، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك ، من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم [1] عن جمع المال، وقد علم أن جمع المال خير للأمة ، فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد كان للأمة ناصحا ، وعليهم مشفقا ، وبهم رؤفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده ، حين نهاهم عن جمع المال ،

---

(١) حديث النهى عن جمع المال : ابن عدى من حديث ابن مسعود ما أوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ـ الحديث : ولأبى نعيم والخطيب فى التاريخ والبيهقى فى الزهد من حديث الحارث بن سويد فى أثناء الحديث لا تجمعوا مالا تأكلون وكلاهما ضعيف

وقد علم أن جمع المال خير لهم ، أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل فى الجمع ، فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما فى المال من الخير والفضل ، فلذلك رغبت فى الاستكثار ، كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك ، تعالى الله عن جهلك أيها المفتون . تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان ، حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة . ويحك ، ماينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف ، وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا . ولقد بلغنى أنه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب ، سبحان الله ، وما تخافون على عبد الرحمن ، كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا . فبلغ ذلك أباذر ، فخرج مغضبا يريد كعبا ، فمر بعظم لحى بعير ، فأخذه بيده ، ثم انطلق يريد كعبا . فقيل لكعب ، إن أبا ذر يطلبك ، فخرج هاربا ، حتى دخل على عثمان يستغيث به ، وأخبره الخبر وأقبل أبو ذر يقص الأثر فى طلب كعب ، حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل ، قام كعب فجلس خلف عثمان ، هاربا من أبى ذر ، فقال له أبو ذر ، هيه يا ابن اليهودية ، تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوما نحو أحد وأنا معه ، فقال « يَا أَبَا ذَرٍّ » فقلت لبيك يارسول الله ، فقال[1] « الأَكْثَرُونَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ » قلت نعم يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، قال « مَا يَسُرُّنِى أَنَّ لِى مِثْلَ أُحُدٍ أُنْفِقُهُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ » قلت أو قنطارين يارسول الله؟ قال « بَلْ قِيرَاطَانِ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْتَ تُرِيدُ الأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الأَقَلَّ » فرسول الله يريد هذا ، وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ،

---

(١) حديث أبى ذر الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا وترك طيبا وانكار أبى ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا فى قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغنى كما ذكره المصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب اذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ماأحب لو كان هذا الجبل لى ذهبا ـ الحديث : وفيه ابن لهيعة

كذبت وكذب من قال . فلم يرد عليه خوفا حتى خرج ﷺ وبلغنا أن عبدالرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن ، فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضى الله عنها ، ماهذا؟ قيل عير قدمت لعبدالرحمن ، قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها ، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يقول « إِنِّى رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ سَعْياً وَلَمْ أَرَ أَحَداً مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُهَا مَعَهُمْ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ عَوْفٍ رَأَيْتُهُ يَدْخُلُهَا مَعَهُمْ حَبْوًا » فقال عبدالرحمن ، إن العير وماعليها فى سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعلى أن أدخلها معهم سعيا .

وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم [٣] قال لعبد الرحمن بن عوف « أَمَا إِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَغْنِيَاءِ أُمَّتِى وَمَا كِدْتَ أَنْ تَدْخُلَهَا إِلَّا حَبْواً »

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالمال ، وهذا عبد الرحمن فى فضله ، وتقواه ، وصنائعه المعروف ، وبذله الأموال فى سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] ، وبشراه بالجنة أيضا ، يوقف فى عرصات القيامة وأهوالها ، بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ، ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا ، وأعطى فى سبيل الله سمحا ، منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين ، وصار يحبو فى آثارهم حبوا . فما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا

وبعد ، فالعجب كل العجب لك يامفتون ، تتمرغ فى تخاليط الشبهات والسحت ، وتتكالب على أوساخ الناس ، وتتقلب فى الشهوات ، والزينة ، والمباهاة ، وتتقلب فى فتن

---

(٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين شعثا ـ الحديث : فى أن عبد الرحمن ابن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا فى كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه ـ الحديث :

(٣) حديث انه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها الاحبوا : البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف ياابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيف فيه خالد بن أبى مالك ضعفه الجمهور

(٤) حديث بشر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديثه أبو بكر فى الجنة ـ الحديث : وفيه وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخارى والترمذى وهذا أصح

الدنيا ، ثم تحتج بعبد الرحمن ، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة ، كأنك أشبهت السلف وفعلهم . ويحك ؛ إن هذا من قياس إبليس، ومن فُتياه لأوليائه

وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ، لتعرف فضائحك ، وفضل الصحابة

ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال ، أرادوها للتعفف ، والبذل فى سبيل الله ، فكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يمنعوا منها حقا ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا . فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم . وبعد

فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله فى أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله مسرورين ، وفى البلاء راضين ، وفى الرخاء شاكرين ، وفى الضراء صابرين ، وفى السراء حامدين . وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلوّ والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ، وزجوا الدنيا ، وصبروا على مكارهها، وتجرعوا مرارتها ، وزهدوا فى نعيمها وزهراتها . فبالله أكذلك أنت ، ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا ، وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء ، أصبح كئيبا حزينا . وإذا لم يكن عندهم شيء، أصبح فرحا مسرورا . فقيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك . قال إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شيء فرحت ، إذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة . وإذا كان عند عيالى شيء ، إغتممت ، إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا ، وقالوا مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف . وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا ، وقالوا الآن تماهد ناربنا

فهذه أحوال السلف ونعتهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذلك أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم ، وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم

وذلك أنك تطغى عند الغنى ، وتبطر عند الرخاء ، وتمرح عند السراء ، وتغفل عن شكر ذى النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء ،

نعم: وتبغض الفقر، وتأنف من المسكنة، وذلك فخر المرسلين. وأنت تأنف من فخرهم، وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر، وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه. وكفى به إثما

وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا، وزهرتها، وشهواتها، ولذاتها. ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] قال « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ فَرَبَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال، ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم، فيقال لهم (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا [١]) وأنت في غفلة، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا، فيالها حسرة ومصيبة. نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو، والفخر، والزينة في الدنيا، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر، لقي الله وهو عليه غضبان. وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك، حين أردت التكاثر والعلو. نعم: وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره لقاء الله، والله للقائك أكره، وأنت في غفلة. وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدنيا، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وقيل سنة. وأنت تأسف على مافاتك، غير مكترث بقربك من عذاب الله. نعم: ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك، وتفرح بإقبال الدنيا عليك، وترتاح لذلك سرورا بها، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [٢] « مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال، إنك تحاسب على التحزن على مافاتك من الدنيا، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها. وأنت فرح بدنياك، وقد سلبت الخوف من الله تعالى. وعساك تعنى بأمور دنياك، أضعاف ماتعنى بأمور آخرتك. وعساك ترى مصيبتك في معاصيك، أهون

---

(١) حديث شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث: تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة

(٢) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه: لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه

---

(١) الأحقاف: ٢٠

من مصيبتك فى انتقاص دنياك. نعم: وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلها ، للعلو ، والرفعة فى الدنيا . وعساك ترضى المخلوقين ، مساخطا لله تعالى ، كيما تكرم وتعظم . ويحك ، فكأن احتقار الله تعالى لك فى القيامة ، أهون عليك من احتقار الناس إياك . وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ، ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها ، فكأن الفضيحة عند الله ، أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله تعالى . الله عن جهلك . فكيف تنطق عند ذوى الألباب ، وهذه المثالب فيك ! أف لك ، متلوثا بالأقذار ، وتحتج بمال الأبرار ! هيهات هيهات ، ماأبعدك عن السلف الأخيار ! والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم ، أزهد منكم فيما حرم عليكم . إن الذى لا بأس به عندكم ، كان من الموبقات عندهم ، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصى . فليت أطيب مالك وأحله ، مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك ، كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل . ليت صومك على مثال إفطارهم . وليت اجتهادك فى العبادة على مثل فتورهم ونومهم . وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال ، غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ، ونهمتهم مازوى عنهم منها . فمن لم يكن كذلك ، فليس معهم فى الدنيا ، ولا معهم فى الآخرة . فسبحان الله ، كم بين الفريقين من التفاوت ! فريق خيار الصحابة فى العلو عند الله ؛ وفريق أمثالكم فى السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله . وبعد ، فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال ، للتعفف والبذل فى سبيل الله ، فتدبر أمرك . ويحك هل تجد من الحلال فى دهرك كما وجدوا فى دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا ؟ لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال ، كنا ندع سبعين بابا من الحلال ، مخافة أن نقع فى باب من الحرام . أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط ؟ لاورب الكعبة ، ماأحسبك كذلك . ويحك ، كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات ، الممزوجة بالسحت والحرام . وقد بلغنا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال « مَنِ اجْتَرَأَ عَلَى الشُّبُهَاتِ أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِى الْحَرَامِ » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات ، أعلى وأفضل ، وأعظم لقدرك عند الله ، من اكتساب الشبهات ، وبذلها فى سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال ، لأن تدع درهما واحدا ، مخافة أن لا يكون حلالا ، خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة ، لا تدرى أيحل لك أم لا

فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل فى سبيل الله ، ويحك إن كنت كما زعمت بالغاً فى الورع ، فلا تتعرض للحساب فإن خيار الصحابة خافوا المسألة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال ، ماسرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال ، وأنفقها فى طاعة الله ، ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة. قالوا ولِمَ ذاك رحمك الله ؟ قال لأنى غنى عن مقام يوم القيامة ، فيقول عبدى من أين اكتسبت ؟ وفى أى شىء أنفقت . فهؤلاء المتقون كانوا فى جدة الإسلام ، والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلا من الحساب ، مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بغاية الأمن ، والحلال فى دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال . ويحك ، أين الحلال فتجمعه . وبعد ، فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ؟ وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال ، فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة ، فلا يزول عن شىء من الحق فى أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك ، لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء

ويحك ، إنى لك ناصح ، أرى لك أن تقنع بالبلغة ، ولا تجمع المال لأعمال البر ، ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) أنه قال « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » وقال عليه السلام (٣) « يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ

---

(١) حديث من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام أول الحديث :

(٢) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به الى النار : بطوله لم أقف له على أصل

فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ فَيُقَالُ لَهُ قِفْ لَعَلَّكَ قَصَّرْتَ فِي طَلَبِ هَذَا بِشَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلَاةٍ لَمْ تُصَلِّهَا لِوَقْتِهَا وَفَرَّطْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوئِهَا فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلَالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فِي هَذَا الْمَالِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهَيْتَ بِهِ فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ مَنَعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتُكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلَالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ وَلَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ وَلَمْ أُضَيِّعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ قَالَ فَيَجِيءُ أُولَئِكَ فَيُخَاصِمُونَهُ فَيَقُولُونَ يَارَبِّ أَعْطَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَأَمَرْتَهُ أَنْ يُعْطِيَنَا فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ وَمَا ضَيَّعَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئاً مِنَ الْفَرَائِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ قِفِ الْآنَ هَاتِ شُكْرَ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ فَلَا يَزَالُ يُسْأَلُ »

ويحك ، فمن ذا الذى يتعرض لهذه المسألة التى كانت لهذا الرجل ، الذى تقلب فى الحلال وقام بالحقوق كلها ، وأدى الفرائض بحدودها ، حوسب هذه المحاسبة . فكيف ترى يكون حال أمثالنا ، الغرقى فى فتن الدنيا ، وتخاليطها ، وشبهاتها ، وشهواتها ، وزينتها ،

ويحك لأجل هذه المسائل ، يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك . بهؤلاء الأخيار أسوة . فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ فى الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفف ، والبذل فى سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله فى شىء من سرائرك وعلانيتك . ويحك ، فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة ، وتعتزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال ، وتسبق مع الرعيل الأول فى زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للمسألة والحساب ،

فإماسلامة، وإماعطب ،فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) قال « يَدْخُلُ صَعَالِيكُ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمُ الْجَنَّةَ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وقال عليه السلام(٤) « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ فَيَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَالآخَرُونَ جُثَاةٌ عَلَى رُكَبِهِمْ فَيَقُولُ قِبَلَكُمْ طَلِبَتِي أَنْتُمْ حُكَّامُ النَّاسِ وَمُلُوكُهُمْ فَأَرُونِي مَاذَا صَنَعْتُمْ فِيمَا أَعْطَيْتُكُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ماسرنى أن لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الأول ، مع محمد عليه السلام وحزبه ، ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين ، فى زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجل المتقين(٥) . لقد بلغنى أن بعض الصحابة ، وهو أبو بكر رضي الله عنه ، عطش ،فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل ، فلما ذاقه خنقته العبرة ، ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه ، وذهب ليتكلم ، فعاد فى البكاء . فلما أكثر البكاء ، قيل له ، أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال نعم . بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما معه أحد فى البيت غيرى فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عنى فقلت له فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحدا، فمن تخاطب؟ فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ إِلَيَّ بِعُنُقِهَا وَرَأْسِهَا فَقَالَتْ لِي يَا مُحَمَّدُ خُذْنِي فَقُلْتُ إِلَيْكِ عَنِّي فَقَالَتْ إِنْ تَنْجُ مِنِّي يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لاَ يَنْجُو مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ » فأخاف أن تكون هذه قد لحقتنى ، تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم ، فهؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة

---

(١) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنسائى فى الكبرى من حديث أبى هريرة يدخل الفقراء الجنة ـ الحديث : ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر ان فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا

(٢) حديث يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ـ الحديث : لم أر له أصلا

(٣) حديث ان بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل ـ الحديث : فى دفع النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله اليك عنى ـ الحديث : البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ـ الحديث : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا فى هذا الكتاب

من حلال ، ويحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات ، من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ! أف لك ، ما أعظم جهلك . ويحك ، فإن تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محمد المصطفى ، لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق، ولئن أردت الكثرة، لتصيرن إلى حساب عسير . ولئن لم تقنع بالقليل ، لتصيرن إلى وقوف طويل ، وصراخ وعويل . ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين . ولئن خالفت أحوال المتقين ، لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت . وبعد فإن زعمت أنك فى مثال خيار السلف ، قنع بالقليل ، زاهد فى الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر شيئاً لغدك ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلا ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوى فى أمرك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الله ، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ، ولن توقف فى المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله ، ويحك . أيها المغرور ، فتدبر الأمر ، وأمعن النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال ، وفراغ القلب للذكر ، والتذكر ، والتذكار ، والفكر ، والاعتبار ، أسلم للدين ، وأيسر للحساب ، وأخف للمسألة ، وآمن من روعات القيامة ، وأجزل للثواب ، وأعلى لقدرك عند الله أضعافا ؟ بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال ، لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها ، والآخر يذكر الله ، لكان الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم ، عن الرجل يجمع المال لأعمال البر ، قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين ، أحدهما طلب الدنيا حلالا فأصابها، فوصل بها رحمه ، وقدم لنفسه . وأما الآخر فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها . فأيهما أفضل ، قال بعيد والله ما بينهما . الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها

ويحك . فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها . ولك فى العاجل إن تركت الأشتغال بالمال ، أن ذلك أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنعم لعيشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهمومك . فما عذرك فى جمع المال ، وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله ، فاجتمع لك راحة العاجل، مع السلامة والفضل فى الآجل . وبعد ، فلو كان فى جمع المال فضل عظيم ، لوجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك. إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا

ويحك ، تدبر ما سمعت ، وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى ، سابقا إلى جنة المأوى ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] قال « سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ مَنْ إِذَا تَغَدَّى لَمْ يَجِدْ عَشَاءً وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضًا وَلَيْسَ لَهُ فَضْلُ كِسْوَةٍ إِلاَّ مَا يُوَارِيهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَكْتَسِبَ مَا يُغْنِيهِ يُمْسِي مَعَ ذَلِكَ وَيُصْبِحُ رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ » (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [1]) : ألا يا أخى ، متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان ، فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه . لا ، ولكنك خوفا من الفقر تجمعه، وللتنعم ،والزينة ،والتكاثر ، والفخر ، والعلو ، والرياء ،والسمعة ،والتعظم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ، ويحك ، راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك ، إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا ، فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ، ومجانبة الفضول . نعم : وكن عند جمع المال، زريا على نفسك معترفا بإساءتك، وجلا من الحساب. فذلك أنجى لك، وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال

إخوانى : اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجوداً ، وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال فى دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم منه

وبعد ، فأين لنا مثل تقوى الصحابة وورعهم ، ومثل زهدهم واحتياطهم . وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم . دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون

---

(١) حديث سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ــ الحديث : عزاه صاحب مسند الفردوس للطبرانى من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصرا بلفظ سادة الفقراء فى الجنة ــ الحديث : ولم أره فى معاجم الطبرانى

---

(١) النساء : ٦٩.

الورود . فياسعادة المخفين يوم النشور، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين

هذا آخر كلامه ، وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على الغنى ، ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا. وفى كتاب الفقر والزهد . ويشهد له أيضا ماروى عن أبى أمامة الباهلى [١] أن ثعلبة بن حاطب قال، يارسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. قال « يَاثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّى شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَتُطِيقُهُ » قال يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا . قال « يَاثَعْلَبَةُ أَمَالَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ تَعَالَى أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال والذى بعثك بالحق نبيا ، لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا ، لأعطين ، كل ذى حق حقه ، ولأ فعلن ولأفعلن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً » فاتخذ غنما، فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ، ويدع ماسواهما . ثم نمت وكثرت ، فتنحى ، حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة، فيسألهم عن الأخبار فى المدينة . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال « مَافَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؟ » فقيل يارسول الله، اتخذ غنما ، فضاقت عليه المدينة .وأخبر بأمره كله فقال « يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قال وأنزل الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ [١]) وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ، ورجلا من بنى سليم على الصدقة . وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة ، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين . وقال « مُرَّا بِثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ ؛ وَبِفُلاَنٍ » رجل من بنى سليم « وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ماهذه إلا جزية،

---

(١) حديث أبى أمامة أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ـ الحديث : بطوله الطبرانى بسند ضعيف .

---

(١) التوبة : ١٠٣

ماهذه إلا جزية، ماهذه إلا أخت الجزية ،انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلىّ فانطلقا نحو السليمي، فسمع بهما ، فقام إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها . فلما رأوها ، قالوا لايجب عليك ذلك : وما نريد نأخذ هذا منك. قال بلى خذوها، نفسي بها طيبة،وإنما هي لتأخذوها. فلما فرغا من صدقاتهما ، رجعا حتى مرّا بثعلبة ،فسألاه الصدقة ،فقال أرونى كتابكما . فنظر فيه ، فقال هذه أخت الجزية : انطلقا حتى أرى رأيى . فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال « يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قبل أن يكلماه ، ودعا للسليمي . فأخبراه بالذى صنع ثعلبة ، وبالذى صنع السليمي . فأنزل الله تعالى فى ثعلبة (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[1]) وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة ، فقال لاأم لك ياثعلبة ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا . فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال « إِنَّ اللهَ مَنَعَنِى أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ » فجعل يحثو التراب على رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَذَا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِى » فلما أبى أن يقبل منه شيئا ، رجع إلى منزله . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه . وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه . وتوفى ثعلبة بعد فى خلافة عثمان

فهذا طغيان المال وشؤمه ، وقد عرفته من هذا الحديث . ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى ، آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران ابن حصين رضي الله عنه أنه قال ، كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] منزلة وجاه،فقال « يَاعِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهاً فَهَلْ لَكَ فِى عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الحديث : بطوله وفيه لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة لم أجده من حديث عمران ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار وضأت

---

(١) التوبة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » فقلت نعم ، بأبي أنت وأمي يارسول الله . فقام وقمت معه ، حتى وقفت بباب منزل فاطمة ، فقرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله .قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟» قالت ومن معك يارسول الله .فقال « عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ » فقالت والذى بعثك بالحق نبيا ، ماعلىّ إلا عباءة، فقال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل . فقال « السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا على مابى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدنى الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لاَ تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ فَوَ اللهِ ماذُقْتُ طَعَاماً مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّي لَأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها ،وقال لها « أَبْشِرِي فَوَاللهِ إِنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فقالت ، فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَخَدِيجَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لاَ أَذًى فِيهَا وَلاَ صَخَبَ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِي الدُّنْيَا سَيِّداً فِي الآخِرَةِ »

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضى الله عنها ،وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر ، وتركت المال . ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم ، وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك فى أن فقد المال أفضل من وجوده ، وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل ما فيه مع أداء الحقوق ، والتوقى من الشبهات ، والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه ، وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال

وقد روى عن جرير ، عن ليث قال ، صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام ، فقال أكون معك وأصحبك . فانطلقا ، فانتهيا إلى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين ، وبقى رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام إلى النهر ، فشرب ، ثم رجع

االنبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك فى فاطمة تعودها ـ الحديث : وفيه أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما واسناده صحيح.

فلم يجد الرغيف . فقال للرجل ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى . قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها ، قال فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف قم بإذن الله ، فقام فذهب . فقال للرجل أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى . ثم انتهيا إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل ، فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له ، أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف؟ فقال لا أدرى . فانتهيا إلى مفازة ، فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ، ثم قال ، كن ذهبا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبا . فقسمه ثلاثة أثلاث ، ثم قال : ثلث لى ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف . فقال أنا الذى أخذت الرغيف. فقال كله لك . وفارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان فى المفازة ، ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه . فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشترى لنا طعاما نأكله . قال فبعثوا أحدهم ، فقال الذى بعث ، لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأقتلهما ، وآخذ المال وحدى . قال ففعل . وقال ذانك الرجلان ، لأى شىء نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا . قال فلما رجع إليهما قتلاه ، وأكلا الطعام فماتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة ، وأولئك الثلاثة عنده قتلى . فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة ، فقال لأصحابه ، هذه فاحذروها

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ، ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور ، وكنسوها ، وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم . وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض . وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له أجب ذا القرنين . فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى . فقال ذو القرنين صدق . فأقبل إليه ذو القرنين ، وقال له ، أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فها أنا قد جئت . فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك . فقال له ذو القرنين ، مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وماذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناهما ، لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا ، فإذا أصبحتم

تعاهدتموها ، فكنستموها ، وصليتم عندها قالواأردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا ، منعتنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لاطعام لكم إلا البقل من الأرض . أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام ، فاحتلبتموها ، وركبتموها ، فاستمتعتم بها ، قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورالها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا . وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام · وأيما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما ، كائنا ما كان من الطعام . ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين ، فتناول جمجمة ، فقال ياذا القرنين ، أتدرى من هذا ؟ قال لا،ومن هو؟ قال ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ، فغشم ، وظلم ، وعتا· فلما رأى الله سبحانه ذلك منه ، حسمه بالموت ، فصار كالحجر الملقى . وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية ، فقال ياذا القرنين ، هل تدرى من هذا ؟ قال لا أدرى ، ومن هو ؟ قال هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم ، والظلم ، والتجبر ، فتواضع وخشع لله عز وجل،وأمر بالعدل فى أهل مملكته ، فصار كما ترى ، قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال ، وهذه الجمجمة قد كانت كهذين .فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين ، هل لك فى صحبتى ، فأتخذك أخا ، ووزيرا ، وشريكا فيما آتانى الله من هذا المال ؟ قال ما أصلح أنا وأنت فى مكان ، ولا أن نكون جميعا . قال ذو القرنين ولم ؟ قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ، ولى صديق . قال ولم ؟ قال يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ، ولا أجد أحدا يعادينى لرفضى لذلك ، ولما عندى من الحاجة وقلة الشيء . قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ، ومتعظا به . فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل ، وبالله التوفيق

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذمّ الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا العيوب ، البصير بسرائر النيات ، وخفايا الطويات ، الذى لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ » ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء ، فضلا عن عامة العبّاد والأتقياء . وهو من أواخر غوائل النفس ، وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعبّاد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم ، وجاهدوها ، وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير ، وإظهار العمل والعلم ، فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة ، إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ،

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(١) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية : ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقى فى الشعب بلفظ المصنف

وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات ، وتوقيه الشبهات ، وتحمله مشاق العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا فى التقريظ والإطراء . ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ، ورغبوا فى بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه ، وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموه فى المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه فى البيع والمعاملات ، وقدموه فى المجالس ، وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين ، وانقادوا له فى أغراضه موقرين . فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات ، وشهوة هى أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات ، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات ، لإدراكها فى الباطن لذة اللذات ، وشهوة الشهوات . فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية ، التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية . ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ، ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد ، وتصنعا للخلق ، وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال ، وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ولذلك قيل . آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وإذا كان الرياء هو الداء الدفين ، الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه ، وحقيقته، ودرجاته وأقسامه ، وطرق معالجته ، والحذر منه . ويتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين:

الشطر الأول : فى حب الجاه والشهرة . وفيه بيان ذم الشهرة ، وبيان فضيلة الخمول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى ، وبيان ما يحمد من حب الجاه ومايذم وبيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم ، وبيان العلاج فى حب الجاه ، وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهة الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم . فهى اثنا عشر فصلا ، منها تنشأ معانى الرياء ، فلابد من تقديمها ، والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان

ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم . بل المحمود الخمول ، إلا من شهره الله تعالى ، لنشر دينه ، من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضى الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ » وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنَ السُّوءِ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلا ، ولا بأس به، إذ روى هذا الحديث ، فقيل له يا أبا سعيد ، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ! فقال إنه لم يعن هذا ، وإنما عنى به المبتدع فى دينه ، والفاسق فى دنياه . وقال على كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السختيانى ، والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لايشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان ، أنه كان إذا كثرت حلقته ، قام مخافة الشهرة . وعن أبى العالية ، أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحوا من عشرة ، فقال ذباب طمع ، وفراش نار

---

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه : البيهقى فى الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر ـ الحديث : مثله وزاد فى آخره ان الله لاينظر الى صوركم ـ الحديث : هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة رواه الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما ورواه ابن يونس فى تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ هلاك بالرجل وفى دينه بالبدعة ودنياه بالفسق واسنادهما ضعيف

وقال سليم بن حنظلة . بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه ، إذ رآه عمر ، فعلاه بالدرة . فقال انظر باأمير المؤمنين ما تصنع . فقال إن هذه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع . وعن الحسن قال . خرج ابن مسعود يوما من منزله ، فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني ؟ فو الله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ، ما اتبعني منكم رجلان . وقال الحسن . إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى . وخرج الحسن ذات يوم ، فاتبعه قوم . فقال هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن

وروى أن رجلا صحب ابن محيريز في سفر . فلما فارقه قال أوصني . فقال إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف ، وتمشي ولا يمشي إليك ، وتسأل ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب في سفر ، فشيعه ناس كثيرون . فقال لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره ، لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه ، فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله ، وهي اليوم في تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبي قلابة، إذ دخل عليه رجل عليه أكسية . فقال إياكم وهذا الحمار الناهق. يشير به إلى طلب الشهرة.

وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة ، والثياب الرديئة ، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحارث أوصني ، فقال أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ماأعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

بيان

فضيلة الخمول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ* لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » وقال ابن مسعود: قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك: مسلم من حديث أبي هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره: وللحاكم رب أشعث أغبر ذي طمرين

*الطمر : الثوب الخلق

(١) « رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ لَوْ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ وَأَهْلُ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَّاظٍ * » وقال أبو هريرة: قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصَتْ لِقَوْلِهِمْ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلْخَلُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قُسِّمَ نُورُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَاراً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَماً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْساً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا وَمَا مَنَعَهَا إِيَّاهُ إِلاَّ لِهَوَانِهَا عَلَيْهِ رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

وروى أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد ، فرأى معاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال مايبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) يقول « إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ »

تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الاسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه

(١) حديث ابن مسعود رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم انى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف

(٢) حديث ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف ــ الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٣) حديث أبى هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم ــ الحديث :

(٤) حديث ان من أمتى من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ــ الحديث: الطبرانى فى الأوسط من حديث ثوبان باسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها إياه لهوانه عليه

(٥) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الأخفياء ــ الحديث : الطبرانى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقى متروك

* الجواظ : الكثير اللحم المختال فى مشيته

وقال محمد بن سويد :قحط أهل المدينة،وكان بها رجل صالح لا يؤبه له،لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فبينما هم فى دعائهم ، إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، ثم بسط يديه ، فقال يارب أقسمت عليك، إلاأمطرت علينا الساعة . فلم يرد يديه ، ولم يقطع دعاءه ، حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق . فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم . وسكن. وتبع الرجل صاحبه الذى استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه ، فخرج إليه ، فقال إنى أتيتك فى حاجة ، فقال ماهى ؟ قال تخصنى بدعوة . قال سبحان الله ! أنت أنت وتسألنى أن أخصك بدعوة ! ثم قال ماالذى بلغك مارأيت ؟ قال أطعت الله فيما أمرنى ونهانى ، فسألت الله فأعطانى .

وقال ابن مسعود كونوا ينابيع العلم،مصابيح الهدى،أحلاس البيوت،سرج الليل،جدد القلوب، خلقان الثياب ، تعرفون فى أهل السماء وتخفون فى أهل الأرض .وقال أبو مامة:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِى عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ * ذُوحَظٍّ مِنْ صَلاَةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِى السِّرِّ وَكَانَ غَامِضاً فِى النَّاسِ لاَيُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ » قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :أحب عباد الله إلى الله الغرباء . قيل ومن الغرباء ؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى يقول فى بعض مايمن به على عبده: ألم أنعم عليك ؟ ألم أسترك ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى عند نفسى من أوضع خلقك ، واجعلنى عند الناس من أوسط خلقك وقال الثورى : وجدت قلبى يصلح بمكة والمدينة ، مع قوم غرباء ،أصحاب قوت وعناء ،

وقال إبراهيم بن أدهم : ماقرت عينى يوما فى الدنيا قط إلا مرة ،بت ليلة فى بعض مساجد قرى الشام ، وكان بى البطن ، فجرنى المؤذن برجلى حتى أخرجنى من المسجد . وقال الفضيل إن قدرت على أن لاتعرف فافعل . وما عليك أن لا تعرف ؟ وما عليك أن لا يثنى عليك ؟ وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى .

---

(١) حديث أبى أمامة ان أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ـ الحديث :الترمذى وابن ماجة باسنادين ضعيفين

*خفيف الحاذ : خفيف الظهر من العيال

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة، وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب. وحب الجاه هو منشأ كل فساد

فإن قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأئمة العلماء. فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة. فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم: فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء وهم كالغريق الضعيف، إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به، فيضعف عنهم، فيهلك معهم. وأما القوي، فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به، فينجيهم ويثاب على ذلك

بيان

ذم حب الجاه

قال الله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا[1]) جمع بين إرادة الفساد والعلو وبيّن أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعاً وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2]) وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَسْرَعَ إِفْسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه[3] « إِنَّمَا هَلَاكُ النَّاسِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَحُبِّ الثَّنَاءِ » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

---

(١) حديث المال والجاه ينبتان النفاق ـ الحديث: تقدم فى أول هذا الباب ولم أجده

(٢) حديث ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم ـ الحديث: تقدم أيضا هناك

(٣) حديث انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء، لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم فى العلم من حديث أنس ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ـ الحديث: ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف حب الثناء من الناس يعمى ويصم

---

(١) القصص: ٨٣ (٢) هود: ١٥، ١٦

بيان

معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها . ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ، ليتوصل بهما إلى الأغراض ، والمقاصد ، وقضاء الشهوات ، وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه ، هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ، ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات . ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات . فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال ، انقاد له ، وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب ، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده . وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه ، بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده . وقد يعتقد ماليس كمالا كمالا ، ويذعن قلبه للموصوف به ، انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده . فإن انقياد القلب حال للقلب ، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها . وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد ، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ، ويملك رقابهم بملك قلوبهم . بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية ، والطاعة له فما يطلبه فوق مايطلبه مالك الرق بكثير . فإذاً معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر مايعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم . وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه

فهذا هو معنى الجاه وحقيقته ، وله ثمرات ، كالمدح والإطراء . فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر مايعتقده ، فيثنى عليه . وكالخدمة والإعانة ، فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده ، فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالإيثار ، وترك المنازعة ، والتعظيم

والتوقير بالمفاتحة بالسلام ، وتسليم الصدر فى المحافل ، والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب . ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص ، إما بعلم ، أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال فى صورة ، أو قوة في بدن ، أو شيء مما يعتقده الناس كمالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب ، فتكون سببا لقيام الجاه ، والله تعالى أعلم

بيان

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا ، هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا . بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار . وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما ، إذ لا تصلح لمطعم ، ولا مشرب ، ولا منكح ، ، ولا ملبس ، وإنما هى والحصباء بمثابة واحدة . ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب ، وذريعة إلى قضاء الشهوات فكذلك الجاه ، لأن معنى الجاه ملك القلوب . وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض . فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال . ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . فالعالم أو الزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب ، لو قصد اكتساب المال تيسر له . فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ، ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال . وأما الرجل الخسيس ، الذى لا يتصف بصفة كمال ، إذا وجد كنزا ، ولم يكن له جاه يحفظ ماله ، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له . فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال . فمن ملك الجاه فقد ملك المال . ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال . فلذلك صار الجاه أحب

الثانى : هو أن المال معرض للبلوى والتلف ، بأن يسرق ، ويغصب ، ويطمع فيه

الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة ، والحراس ، والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة . وأما القلوب إذا ملكت ، فلا تتعرض لهذه الآفات ، فهى على التحقيق خزائن عتيدة ، لا يقدر عليها السراق ، ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب . وأثبت الأموال العقار ، ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ، ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ . وأما خزائن القلوب فهى محفوظة محروسة بأنفسها . والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم : إنما تغصب القلوب بالتصريف ، وتقبيح الحال ، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ؟ ولا يتيسر على محاوله فعله

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد ، من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله ، بعلم أو عمل أو غيره ، أفصحت الألسنة لامحالة بما فيها ، فيصف ما يعتقده لغيره ، ويقتنص ذلك القلب أيضاً له . ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر ، لأن ذلك إذا استطار فى الأقطار اقتنص القلوب ، ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد ، وليس له مرد معين وأما المال ، فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه ، ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبداً فى النماء بنفسه ، ولا مرد لموقعه ، والمال واقف . ولهذا إذا عظم الجاه، وانتشر الصيت ، وانطلقت الألسنة بالثناء ، استحقرت الأموال فى مقابلته . فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال ، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح

فإن قلت : فالإشكال قائم فى المال والجاه جميعاً ، فلا ينبغى أن يحب الإنسان المال والجاه نعم : القدر الذى يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم ، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة ، إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه للمال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفى الطباع أمر عجيب وراء هذا ، وهو حب جمع الأموال ، وكنز الكنوز ، وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه ، وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التى يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ، ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليبروه بمال ، أو ليعينوه على غرض من أغراضه

ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ ؛ وحب ذلك ثابت فى الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل ، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب ، وله سببان : أحدهما جلى تدركه الكافة ، والآخر خفى ، وهو أعظم السببين ، ولكنه أدقهما وأخفاهما ، وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفى فى النفس ، وطبيعة مستكنة فى الطبع ، لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفيا فى الحال ، فإنه طويل الأمل ، ويخطر بباله أن المال الذى فيه كفايته ربما يتلف ، فيحتاج إلى غيره . فإذا خطر ذلك بباله ، هاج الخوف من قلبه . ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر ، يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة . فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة ، يقدر طول الحياة ، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك ، فيطلب ما يدفع خوفه ، وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر

وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما فى الدنيا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ مَنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ » ومثل هذه العلة تطرد فى حبه قيام المنزلة والجاه فى قلوب الأباعد عن وطنه وبلده . فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن ، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة ، كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه فى قلوبهم ، لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

وأما السبب الثانى : وهو الأقوى ، أن الروح أمر ربانى ، به وصفه الله تعالى : إذ قال سبحانه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي[1]) ومعنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ، ولا رخصة فى إظهاره ،[2] إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث منهومان لا يشبعان ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى مسعود بسند ضعيف والبزار والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح : البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(١) الاسراء : ٨٥

ولكنك قبل معرفة ذلك ، نعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية ، كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية ، كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية ، كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية ، كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء . وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الربانى يحب الربوبية بالطبع . ومعنى الربوبية التوحد بالكمال ، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية ، فصار محبوبا بالطبع للإنسان . والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة فى الوجود نقص لامحالة . فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية . والمنفرد بالوجود هو الله تعالى ، إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته ، بل هو قائم به . فلم يكن موجودا معه ، لأن المعية توجب المساواة فى الرتبة والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال . بل الكامل من لانظير له فى رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس ، بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة ، مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة ، فيكون تابعا ولا يكون متبعا . فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود ، وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [1]) ولكنه ليس يجد له مجالا . وهو كما قال . فإن العبودية قهر على النفس ، والربوبية محبوبة بالطبع . وذلك للنسبة الربانية التى أومأ إليها قوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى [2]) ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال ، لم تسقط شهوتها للكمال ، فهى محبة للكمال ، ومشتهية له ، وملتذة به لذاته لالمعنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ، ولكمال ذاته ، ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته ، أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود ، فى الاستيلاء على كل الموجودات . فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك ، فإن لم يكن منك

(١) النازعات : ٢٤ (٢) الاسراء : ٨٥

فأن تكون مستوليا عليه. فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته، فإنه يحب ذاته، ويحب كمال ذاته ويلتذ به. إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة، وكونه مسخرا لك تردده كيف تشاء، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه. إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه، كذات الله تعالى وصفاته، وإلى ما يقبل التغيير، ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق، كالأفلاك، والكواكب، وملكوت السموات ونفوس الملائكة، والجن، والشياطين، وكالجبال، والبحار، وما تحت الجبال والبحار. وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن، والنبات، والحيوان ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات..

فإذاً انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه، كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر عليه، كذات الله تعالى، والملائكة، والسموات. أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم، والإحاطة، والاطلاع على أسرارها، فإن ذلك نوع استيلاء، إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم، والعالم كالمستولى عليه. فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى، والملائكة، والأفلاك، والكواكب، وجميع عجائب السموات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها، لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال. وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة، إلى معرفة طريق الصنعة فيها. كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به، وأنه كيف وضع. وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة، أو الشعبذة، أوجر الثقيل أو غيره، وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه، ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته، فهو متألم ببعض العجز، متلذذ بكمال العلم إن علمه

وأما القسم الثاني: وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد، وهي قسمان: أجساد، وأرواح

أما الأجساد، فهي الدراهم، والدنانير، والأمتعة، فيجب أن يكون قادرا عليها، يفعل فيها ما شاء من الرفع، والوضع، والتسليم، والمنع، فإن ذلك قدرة، والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع. فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها

فى ملبسه ومطعمه ، وفى شهوات نفسه . وكذلك طلب استرقاق العبيد ، واستعباد الأشخاص الأحرار ، ولو بالقهر والغلبة ، حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ، ويقوم القهر منزلته فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذيذة لما فيها من القدرة

القسم الثانى : نفوس الآدميين وقلوبهم ، وهي أنفس ما على وجه الأرض . فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها ، لتكون مسخرة له ، متصرفة تحت إشارته وإرادته ، لما فيه من كمال الاستيلاء ، والتشبه بصفات الربوبية . والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فإن كل كمال محبوب ، لأن الكمال من الصفات الإلٰهية ، والصفات الإلٰهية كلها محبوبة بالطبع ، للمعنى الربانى من جملة معانى الإنسان ، وهو الذى لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأ كله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة ، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه

فإذاً معنى الجاه تسخر القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال ، وهو من أوصاف الربوبية . فإذاً محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ، ولا نهاية للمقدورات . وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن ، والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ » فإذاً مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة ، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال

فهذا هو السبب فى كون العلم ، والمال ، والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات ، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض . بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات . ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم فى جميع العجائب والمشكلات لأن فى العلم استيلاء على المعلوم ، وهو نوع من الكمال الذى هو من صفات الربوبية ، فكان محبوبا بالطبع . إلا أن فى حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى

بيان

الكمال الحقيقى والكمال الوهمى الذى لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا فى العلم والقدرة . ولكن الكمال الحقيقى فيه ملتبس بالكمال الوهمى . وبيانه أن كمال العلم لله تعالى ، وذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى

الثانى : من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهى عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح ، وأيقن ، وأصدق ، وأوفق للمعلوم فى تفاصيل صفات المعلوم ، كان أقرب إلى الله تعالى

الثالث : من حيث بقاء العلم أبد الآباد ، بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب ، كان أقرب إلى الله تعالى

والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات : فمثالها العلم بكون زيد فى الدار ، فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ، ويبقى اعتقاد كونه فى الدار كما كان ، فينقلب جهلا ، فيكون نقصانا لا كمالا . فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته ، كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ، ويعود علمك جهلا . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كعلمك مثلا بارتفاع جبل ، ومساحة أرض ، وبعدد البلاد ، وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكر فى المسالك والممالك . وكذلك العلم باللغات ، التى هى اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات . فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق ، تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا فى الحال ولا يبقى كمالا فى القلب

القسم الثانى : هو المعلومات الأزلية ، وهو جواز الجائزات ، ووجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات . فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ، ولا الجائز محالا ، ولا المحال واجبا . فكل هذه الأقسام داخلة فى معرفة الله ، وما يجب له ، وما يستحيل فى صفاته ، ويجوز فى أفعاله . فالعلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وحكمته فى ملكوت

السموات والأرض ، وترتيب الدنيا والآخرة ، وما يتعلق به ، هو الكمال الحقيقى ، الذى يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالا للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا . أى تكون هذه المعرفة رأس مال ، يوصل إلى كشف مالم ينكشف فى الدنيا ، كما أن من معه سراج خفى ، فإنه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام . ومن ليس معه أصل السراج ، فلا مطمع له فى ذلك . فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى ، لم يكن له مطمع فى هذا النور ، فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، بل كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب : ظلمات بعضها فوق بعض . فإذاً لاسعادة إلا فى معرفة الله تعالى .

وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها مالا فائدة له أصلا ، كمعرفة الشعر ، وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منفعة فى الإعانة على معرفة الله تعالى ، كمعرفة لغة العرب ، والتفسير والفقه ، والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرءان ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما فى القرءان من كيفية العبادات ، والأعمال التى تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1]) وقال عز وجل (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [2]) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى . وإنما الكمال فى معرفة الله ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هى فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة ، فهى من تكملة معرفة الله تعالى . وهذا حكم كمال العلم ، ذكرناه وإن لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال

وأما القدرة ، فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى ، وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله . ومايحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد ، وقدرته وحركته ،

---

(١) الشمس : ٩ (٢) العنكبوت : ٦٩

فهى حادثة بإحداث الله ، كما قررناه فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل ، وفى مواضع شتى من ربع المنجيات . فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ، ويوصله إلى الله تعالى . فأما كمال القدرة فلا. نعم : له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ، وهى وسيلة له إلى كمال العلم ، كسلامة أطرافه ، وقوة يده للبطش ، ورجله للمشى ، وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم . وقد يحتاج فى استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه ، للتوصل به إلى المطعم والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله ، فلاخير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية ، التى تنقضى على القرب . ومَن ظن ذلك كمالا فقد جهل .

فالخلق أكثرهم هالكون فى غمرة هذا الجهل. فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال . فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ، ولما طلبوه شغلوا به ، وتهالكوا عليه ،فنسوا الكمال الحقيقى الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته ، وهو العلم والحرية . أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى . وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا ، والاستيلاء عليها بالقهر ، تشبها بالملائكة الذين لاتستفزهم الشهوة ، ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال ، الذى هو من صفات الملائكة .

ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه ، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد ، كان إلى الله تعالى أقرب ، وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة . وإنما لم نورده فى أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان ، إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص فى اللذات وفى صفات الكمال . فإذاً الكمالات ثلاثة ، إن عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالا ، ككمال العلم ، وكمال الحرية ، وأعنى به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية . وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال ، وعلى استسخار القلوب والأبدان ، تنقطع بالموت . ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت ،

بل يبقيان كما لا فيه ، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان ، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذى لا يسلم ، وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم ، الذى إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له . وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً [١]) فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس . والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ [٢]) الآية ، وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ [٣]) إلى قوله (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [٤]) وكل ماتذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقى . اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

بيان

ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب ، والقدرة عليها ، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ماخلق فى الدنيا ، فيمكن أن يتزود منه للآخرة . وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم ، والمشرب ، والملبس ، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق . والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله ، فيجوز أن يحب الطعام ، أو المال الذي يبتاع به الطعام ، فكذلك

---

(١) الكهف : ٤٦ (٢) يونس : ٢٤ (٣) ، (٤) الكهف : ٤٥

لايخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له فى قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له فى قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له فى قلب أستاذه من المحل مايحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له من المحل فى قلب سلطانه مايحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم . فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال . فلا فرق بينهما . إلا أن التحقيق فى هذا يفضى إلى أن لايكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له فى داره بيت ماء ، لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته . ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء . فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء . فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب ، فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتدرك التفرقة بمثال آخر ، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام . ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به . وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ، ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها . فهذا هو الحب دون الأول . وكذلك الجاه والمال ، قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين . فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم . وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان . مالم يحمله الحب على مباشرة معصية ، ومايتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور ، ومالم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة . فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين ، وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى

فإن قلت ، طلبه المنزلة والجاه فى قلب أستاذه ، وخادمه ، ورفيقه ، وسلطانه ، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ، أو يباح إلى حد مخصوص ، على وجه مخصوص ؟

فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان منه مباحان ، ووجه محظور

أما الوجه المحظور ، فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها . مثل العلم ، والورع ، والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى ، أو عالم ، أو ورع ، وهو لا يكون كذلك

فهذا حرام ، لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة

وأما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1]) فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان محتاجا إليه ، وكان صادقا فيه

والثاني : أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ، ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ، فلا تزول منزلته به . فهذا أيضا مباح . لأن حفظ الستر على القبائح جائز . ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به . كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ، ولا يلقي إليه أنه ورع . فإن قوله إني ورع تلبيس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع ، بل يمنع العلم بالشرب .. ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس ، إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله ، وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ! فطلب الجاه بهذا الطريق حرام . وكذلك بكل معصية . وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق . وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره ، فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال

بيان

السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب

السبب الأول : وهو الأقوى ، شعور النفس بالكمال : فإنا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيذ . فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت ، واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها . فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا ، أو يكون مشكوكا فيه . فإن كان جليا ظاهرا محسوسا ، كانت اللذة به أقل . ولكنه

---

[1] يوسف : ٥٥

لايخلو عن لذة ، كثنائه عليه بأنه طويل القامة ، أبيض اللون . فإن هذا نوع كمال ، ولكن النفس تغفل عنه ، فتخلو عن لذته : فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة

وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك ، فاللذة فيه أعظم : كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه ، وفى كمال علمه ، وكمال ورعه ، ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك ، بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الأمور ، إذ تطمئن نفسه إليه . فإذا ذكره غيره ، أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال ، فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات ، خبير بها ، لايجازف فى القول إلا عن تحقيق . وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة ، والذكاء ، وغزارة الفضل ، فإنه فى غاية اللذة . وإن صدر ممن يجازف فى الكلام ، أو لايكون بصيرا بذلك الوصف ، ضعفت اللذة . وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه ، لأنه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت والشعور به مؤلم . ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به ، كما ذكرناه فى المدح

السبب الثانى : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وأنه مريد له ، ومعتقد فيه ، ومسخر تحت مشيئته . وملك القلوب محبوب . والشعور بحصوله لذيذ . وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ، وينتفع باقتناص قلبه ، كالملوك والأكابر . ويضعف مهما كان المادح ممن لايؤبه له ، ولا يقدر على شيء . فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم ، لأن الفائت به أعظم

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه . لاسيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ، ويعتد بثنائه . وهذا مختص بثناء يقع على الملأ . فلا جرم كلما كان الجمع أكثر ، والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله ، كان المدح ألذ ، والذم أشد على النفس

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح ، إما عن طوع ، وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضا لذيذة ، لما فيها من القهر والقدرة . وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لايعتقد فى الباطن مامدح به ، ولكن

كونه مضطرا إلى ذكره نوعُ قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تسكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد . فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع فى مدح مادح واحد ، فيعظم بها الالتذاذ . وقد تفترق ، فتنقص اللذة بها

أما العلة الأولى ، وهى استشعار الكمال ، فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب ، أوسخى ، أو عالم بعلم ، أومتورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات . فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ، ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية ، وهو استيلاؤه على قلبه : وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء . فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب ، بطلت اللذات كلها ، فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة

فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح ، وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه ، وحب المحمدة ، وخوف المذمة . فإن ما لا يعرف سببه ، لا يمكن معالجته . إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى

بيان

علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفا بالتودد إليهم ، والمراآة لأجلهم . ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد . ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل فى العبادات ، والمراآة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال ، وإفسادهما للدين ، بذئبين ضاريين ، وقال عليه السلام إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس ، فيضطر إلى النفاق معهم ، وإلى التظاهر بخصال

حميدة هو خال عنها. وذلك هو عين النفاق. فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس، وعلى قلوبهم. وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات. بل لو سجدلك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له. ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى كما سبق، صغر الجاه فى عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر فى عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها، ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصرى حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز. أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل، وقدره كائنا. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب فى جوابه: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل. فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى، إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال فى الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب. ولذلك قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [1]) وقال عز وجل (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [2]) فمن هذا حده فينبغى أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر فى الأخطار التى يستهدف لها أرباب الجاه فى الدنيا. فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته فى القلوب. والقلوب أشد تغيرا من القدر فى غليانها. وهى مترددة بين الإقبال والإعراض. فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب، وحفظ الجاه، ودفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء،

---

(١) الأعلى: ١٦، ١٧ (٢) القيامة: ٢٠

كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه . فلايفي في الدنيا مرجوها بمخوفها ، فضلا عما يفوت في الآخرة . فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته ، وقوي إيمانه ، فلا يلتفت إلى الدنيا . فهذا هو العلاج من حيث العلم

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق ، بمباشرة أفعال يلام عليها ، حتى يسقط من أعين الخلق ، وتفارقه لذة القبول ، ويأنس بالخمول ورد الخلق ، ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملامتية ، إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ، ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس ، فيسلموا من آفة الجاه . وهذا غير جائز لمن يقتدى به ، فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين . وأما الذي لايقتدى به ، فلايجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات مايسقط قدره عند الناس ، كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه ، استدعى طعاما وبقلا ، وأخذ يأكل بشره ، ويعظم اللقمة . فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد . الحمد لله الذي صرفك عني

ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر ، حتى يظن به أنه يشرب الخمر ، فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه . إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه ، مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون مافرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد ، وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ، ولبس ثياب غيره وخرج ، فوقف في الطريق حتى عرفوه ، فأخذوه وضربوه ، واستردوا منه الثياب ، وقالوا إنه طرار ، وهجروه . وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس ، والهجرة إلى موضع الخمول . فإن المعتزل في بيته . في البلد الذي هو به مشهود لايخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته . فإنه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه ، وهو مغرور . وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها . ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه ، فذموه ، أو نسبوه إلى أمر غير لائق به ، جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك ، وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم . وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ، ولايبالي به . وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال ، بل هو شر منه ، فإن فتنة الجاه أعظم ،

ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس . فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى ، وقطع طمعه عن الناس رأسا ، أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال فلا يبالى أ كان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق ، لأنه لا يراهم ، ولا يطمع فيهم . ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة . فمن قنع استغنى عن الناس ؛ وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ، ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن . ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول والذل ، مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة ، أو قلة ، أو علة. وينظر فى أحوال السلف، وإيثارهم للذل على العز، ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين.

بيان

وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم . فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجاء للمدح وخوفا من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك ، وتقول لنفسك : هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها، فهى إما صفة تستحق بها المدح ، كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح ، كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية. فإن كانت من الأعراض الدنيوية. فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض، الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل. بل العاقل يقول كما قال المتنبى:

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا . وإن فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها . بل بوجودها . والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها ، كالعلم والورع ، فينبغى أن لا يفرح بها ، لأن الخاتمة غير معلومة . وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى . وخطر الخاتمة باق . ففى الخوف من سوء الخاتمة

شغل عن الفرح بكل مافي الدنيا . بل الدنيا دار أحزان وغموم ، لادار فرح وسرور . ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى ، لابمدح المادح . فإن اللذة في استشعار الكمال ، والكمال موجود من فضل الله لامن المدح ، والمدح تابع له ، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لايزيدك فضلا

وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول : سبحان الله ! ما أكثر العطر الذي في أحشائه ، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ماتشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان ثم يفرح بذلك . فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ، ففرحت به ، والله مطلع على خبائث باطنك ، وغوائل سريرتك ، وأقذار صفاتك ، كان ذلك من غاية الجهل

فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك ، التي هي من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح ، وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب . وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ، وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس ، وفرحك به ، يسقط منزلتك عند الله ، فكيف تفرح به !

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ، ولا تستحق الفرح . بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ، كما نقل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ، كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل : وروى في بعض الأخبار ، فإن صح فهو قاصم للظهور ، [1] أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِرًا فَرَضِيَ الَّذِي قُلْتَ فَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ان رجلا أثنى على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل النار : لم أجدله أصلا

مرة للمادح[1] « وَيحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال عليه السلام « أَلَا لَا تَمَادَحُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ »[2]

فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته ، وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء ، فقال . أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم . فغضب وقال : إنى لم آمرك بأن تزكينى . وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله . فغضب وقال : أنى لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم لما مدح . اللهم إن عبدك تقرب إلىّ بمقتك ، فأشهدك على مقته . وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق ، وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلق لأن الممدوح هو المقرب عند الله ، والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى فى النار مع الأشرار . فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار ، فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره . وإن كان من أهل الجنة ، فلا ينبغى أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه ، إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حب المدح ، واشتغل بما يهمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

بيان
علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة فى كراهة الذم ، هو ضد العلة فى حب المدح . فعلاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه ، أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال ، وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقا ، ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذبا . فإن كان صادقا وقصده النصح ، فلا ينبغى أن تذمه ، وتغضب عليه وتحقد بسببه . بل ينبغى أن تتقلد منته . فإن من أهدى إليك عيوبك ، فقد أرشدك

(١) حديث ويحك قطعت ظهره ـ الحديث : قاله للمادح تقدم

(٢) حديث ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب : تقدم دون قوله ألا لا تمادحوا

إلى المهلك حتى تتقيه . فينبغى أن تفرح به ، وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه ، وكراهتك له ، وذمك إياه ، فإنه غاية الجهل

وإن كان قصده التعنت ، فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك ، إن كنت جاهلا به ، أوذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه ، أوقبحه فى عينك ، لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك ، وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السعادة ، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة . فمها قصدت الدخول على ملك ، وثوبك ملوث بالعذرة ، وأنت لاتدرى ، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة ، فقال لك قائل : أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك ، فينبغى أن تفرح به ، لأن تنبيهك بقوله غنيمة . وجميع مساوى الأخلاق مهلكة فى الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغى أن تغتنمه . وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه ، وهو نعمة منه عليك . فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت ، وتضرر هو به

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى ، فينبغى أن لا تكره ذلك ، ولا تشتغل بذمه . بل تتفكر فى ثلاثة أمور

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ، ودفعه عنك بذكر ما أنت برئ عنه

والثانى : أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك ، فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه ، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها . وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فما بالك تفرح بقطع الظهر ، وتحزن لهدايا الحسنات التى تقربك إلى الله تعالى ! وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله

وأما الثالث ، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله ، وأهلك نفسه بافترائه ، وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه ، فتشمت به الشيطان ، وتقول اللهم أهلكه ، بل ينبغى أن تقول اللهم أصلحه ، اللهم تب عليه ،

اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » لما أن كسروا ثنيته ، وشجوا وجهه ، وقتلوا عمه حمزة يوم أحد .

ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة ، فقيل له فى ذلك ، فقال علمت أنى مأجور بسببه ، وما نالنى منه إلا خير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببى . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع . فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبه وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه . وما دام الطمع قائما ، كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جدا

بيان

اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ، ويشكر المادح ، ويغضب من الذم ، ويحقد على الذام ، ويكافئه أو يحب مكافأته . وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذام ، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور . وهذا من النقصان ، إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال

الحالة الثالثة : وهى أول درجات الكمال ، أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فلا تغمه المذمة ، ولا تسره المدحة . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ، ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه ، بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده ، أكثر مما يجده فى المادح . وأن لا يجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح ، فوق ما يجده فى قضاء حاجة الذام . وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه ، أهون عليه

---

(١) حديث اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون قاله لما ضربه قومه : البيهقى فى دلائل النبوة وقد تقدم والحديث فى الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبى من الأنبياء حين ضربه قومه .

من انقطاع المادح . وأن لا يكون موت المادح المطرى له ، أشد نكاية فى قلبه من موت الذام وأن لايكون غمه بمصيبة المادح ومايناله من أعدائه ، أكثر مما يكون بمصيبة الذام . وأن لاتكون زلة المادح ، أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام . فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح ، واستويا من كل وجه ، فقد نال هذه الرتبة . وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب

وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن فى قلوبهم وهم لايشعرون . حيث لايمتحنون أنفسهم بهذه العلامات . وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ! وإنما استثقالك للذام من الدين المحض . وهذا محض التلبيس . فإن العابد لو تفكر ، علم أن فى الناس من ارتكب من كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام فى مذمته ثم إنه لايستثقلهم ولا ينفر عنهم . ويعلم أن المادح الذى مدحه لايخلو عن مذمة غيره ، ولا يجد فى نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه . والمذمة من حيث إنها معصية لاتختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذاً العابد المغرور لنفسه يغضب ، ولهواه يمتعض ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتقد على الله بهواه ، فيزيده ذلك بعدا من الله . ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس ، فأكثر عباداته تعب ضائع ، يفوت عليه الدنيا ، ويخسره فى الآخرة . وفيهم قال الله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [1])

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة ، أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذ يعلم أنه فتنة عليه ، قاصمة للظهر ، مضرة له فى الدين . ويحب الذام ، إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ، ومرشد له إلى مهمه ، ومهد إليه حسناته . فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « رَأْسُ التَّوَاضُعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذْكَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وقد روى فى بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم [2] قال « وَيْلٌ لِلصَّائِمِ وَوَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ

---

(١) حديث رأس التواضع ان يكره أن يذكر بالبر والتقوى : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف ـ الحديث : لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله ولم يخرجه ولده فى مسنده .

---

(١) الكهف : ١٠٣ .

الصُّوفِ إِلاَّ مَنْ » فقيل يارسول الله إلا من ؟ فقال « إِلاَّ مَنْ تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ الْمِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ الْمَذَمَّةَ » وهذا شديد جدا

وغاية أمثالنا الطمع فى الحالة الثانية : وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولايظهر ذلك بالقول والعمل . فأما الحالة الثالثة : وهى التسوية بين المادح والذام ، فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية ، فإنها لاتفى بها ، لأنها لابد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه . ولا تقدر على أن نسوى بينهما فى الفعل الظاهر ، كمالا نقدر عليه فى سريرة القلب . ومن قدر على التسوية بين المادح والذام فى ظاهر الفعل ،فهوجدير بأن يتخذقدوة فى هذا الزمان إن وجد، فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بمابعده من المرتبتين

وكل واحدة من هذه الرتب أيضافيها درجات . أماالدرجات فى المدح ،فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت،فيتوصل إلى نيل ذلك بكل مايمكن ،حتى يرائى بالعبادات، ولايبالى بمقارفة المحظورات،لاستمالة قلوب الناس،واستنطاق ألسنتهم بالمدح:وهذا من الهالكين

ومنهم من يريد ذلك ، ويطلبه بالمباحات ، ولا يطلبه بالعبادات ،ولا يباشر المحظورات. وهذا على شفاجرف هار.فإن حدود الكلام الذى يستميل به القلوب،وحدود الأعمال،لا يمكنه أن يضبطها . فيوشك أن يقع فيمالايحل لنيل الحمد . فهو قريب من الهالكين جدا

ومنهم من لا يريد المدحة ، ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه . فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ، ولم يتكلف الكراهية ،فهوقريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التى قبلها . وإن جاهد نفسه فى ذلك ، وكلف قلبه الكراهية ،وبغض السرور إليه بالتفكر فى آفات المدح ، فهو فى خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليد له ، وتارة تكون عليه

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسربه ،ولم يغتم به ، ولم يؤثر فيه ، وهذا على خير ،وإن كان قدبقى عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ، ولكن لا ينتهى به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه. وأقصى درجاته أن يكره،ويغضب،ويظهر الغضب،وهو صادق فيه . لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له ،فإن ذلك عين النفاق،لأنه يريد ،أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق ،وهو مفلس عنه . وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال فى حق الذام.

وأول درجاته إظهار الغضب ، وآخرها إظهار الفرح . ولا يكون الفرح . وإظهاره إلا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه ، وكثرة عيوبها ، ومواعيدها الكاذبة ، وتلبيساتها الخبيثة ، فيبغضها بغض العدو . والإنسان يفرح عن يذم عدوه.وهذا شخص عدوه نفسه ، فيفرح إذا سمع ذمها ، ويشكر الذام على ذلك ، ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه ، ويكون غنيمة عنده ، إذ صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس ، حتى لا يبتلى بفتنة الناس . وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها ، فعساه يكون خيرا لعيوبه التى هو عاجز عن إماطتها . ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة ، وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، لكان له شغل شاغل فيه ، لا يتفرغ معه لغيره . وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة ، هذه إحداها ، ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطويل

الشطر الثانى من الكتاب

فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء . وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء ، وما يرائى به ، وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفى ، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ، وبيان دواء الرياء وعلاجه ، وبيان الرخصة فى إظهار الطاعات ، وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها ، وهي عشرة فصول ، وبالله التوفيق

بيان

ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام ، والمرائى عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار أما الآيات. فقوله تعالى(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ[1]) وقوله عز وجل(وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ[2])

(١) الماعون ٤ ، ٥ ، ٦ (٢) فاطر : ١٠

قال مجاهد . هم أهل الرياء . وقال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا [(١)]) فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله . والرياء ضده . وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [(٢)]) نزل [(١)] ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يارسول الله ، فيم النجاة؟ فقال « أَنْ لَا يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللهِ يُرِيدُ بِهَا النَّاسَ » [(٢)] وقال أبو هريرة فى حديث الثلاثة ، المقتول فى سبيل الله ، والمتصدق بماله ، والقارىء لكتاب الله ، كما أوردناه فى كتاب الإخلاص . وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارىء . فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا ، وأن رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما ، قال النبى صلى الله عليه وسلم [(٣)] « مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ » وفى حديث آخر طويل ، [(٤)] أن الله تعالى يقول للملائكة ، إن هذا لم يردنى بعمله ، فاجعلوه فى سجين . وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث نزول قوله تعالى من كان يرجو لقاء ربه الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعباداته وأعماله: الحاكم من حديث طاوس قال رجل انى أقف الموقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا فى نسختى من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة والبزار من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك ـ الحديث : وفيه انه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

(٢) حديث أبى هريرة فى الثلاثة المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتابه فان الله يقول لكل واحد منهم كذبت: رواه مسلم وسيأتى فى كتاب الاخلاص

(٣) حديث ابن عمر من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به: متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث ابن عمر فرواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفى الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع انه من حديث عبد الله بن عمرو

(٤) حديث ان الله يقول للملائكة ان هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سجين: ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

---

(١) الدهر : ٩ (٢) الكهف ١١٠

(١) «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال «الرِّيَاءُ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمُ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُنَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ الْجَزَاءَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ» قيل وما هو يارسول الله؟ قال «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ»

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَأَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ». وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم صوم أحدكم، فليدهن رأسه ولحيته، ويمسح شفتيه، لئلا يرى الناس أنه صائم. وإذا أعطى بيمينه، فليخف عن شماله. وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٤) «لاَ يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلاً فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ» وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر، يعني النبي صلى الله عليه وسلم (٥) يقول «إِنَّ أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ»

وقال صلى الله عليه وسلم (٦) «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ» وهي أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه. وقال صلى الله عليه وسلم (٧) «إِنَّ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ رَجُلاً تَصَدَّقَ بِيَمِينِهِ فَكَادَ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ»

---

(١) حديث ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر ـ الحديث: أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود ابن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج

(٢) حديث استعيذوا بالله من جب الحزن قيل وما هو قال وادفي جهنم أعد للقراء المرائين: الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي

(٣) حديث يقول الله من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله ـ الحديث: مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله وأنا منه بريء ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهي عند ابن ماجه بسند صحيح

(٤) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء: لم أجده هكذا

(٥) حديث معاذ ان أدنى الرياء شرك: الطبراني هكذا والحاكم بلفظ ان اليسير من الرياء شرك وقد تقدم قبل هذه الورقة

(٦) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء ـ الحديث: تقدم في أول هذا الكتاب

(٧) حديث ان في ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله: متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث سبعة يظلهم الله في ظله

ولذلك ورد [١] أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الْمُرَائِيَ يُنَادَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاجِرُ يَاغَادِرُ يَامُرَائِي ضَلَّ عَمَلُكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ » [٣] وقال شداد بن أوس: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكى، فقلت مايبكيك يارسول الله؟ قال « إِنِّي تَخَوَّفْتُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ صَنَماً وَلَا شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا حَجَراً وَلَكِنَّهُمْ يُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِهِمْ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ مَادَتْ بِأَهْلِهَا فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَصَيَّرَهَا أَوْتَاداً لِلْأَرْضِ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَاخَلَقَ رَبُّنَا خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ فَخَلَقَ اللهُ الْحَدِيدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيدَ ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الْمَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَأَمَرَ الرِّيحَ فَكَدَّرَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتْ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى قَالُوا يَارَبِّ مَاأَشَدُّ مَاخَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى لَمْ أَخْلُقْ خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ فَهَذَا أَشَدُّ خَلْقٍ خَلَقْتُهُ »

وروى عبد الله بن المبارك، بإسناده عن رجل، أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال فبكى معاذ، حتى ظننت أنه لايسكت، ثم سكت. ثم قال، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لى « يَامُعَاذُ » قلت لبيك بأبى أنت وأمى يارسول الله. قال « إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَهُ

---

(١) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين: ضعفه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء ان الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به فى السر يضعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقى هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف يفضل الذكر الخفى الذى لاتسمعه الحفظة على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين درجة

(٢) حديث ان المرائى ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك ـ الحديث: ابن أبى الدنيا من رواية جبلة اليحصبى عن صحابى لم يسم وزاد ياكافر ياخاسر ولم يقل يامرائى واسناده ضعيف

(٣) حديث شداد بن أوس انى تخوفت على أمتى الشرك ـ الحديث: ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا

(٤) حديث لما خلق الله الارض مادت بأهلها ـ الحديث: وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله الترمذى من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب

وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَامُعَاذُ[1] إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكاً بَوَّاباً عَلَيْهَا قَدْ جَلَّلَهَا عِظَماً فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينَ أَصْبَحَ إِلَى حِينَ أَمْسَى لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا زَكَّتْهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُولُ الْمَلَكُ لِلْحَفَظَةِ اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ الْغِيبَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَ مَنْ اغْتَابَ النَّاسَ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ ثُمَّ تَأْتِي الْحَفَظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فَتَمُرُّ بِهِ فَتُزَكِّيهِ وَتُكَثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرَضَ الدُّنْيَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَبْتَهِجُ نُوراً مِنْ صَدَقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الْحَفَظَةَ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ الْكِبْرِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ لَهُ دَوِيٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ أَنَا صَاحِبُ الْعُجْبِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِي عَمَلِهِ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ كَأَنَّهُ الْعَرُوسُ الْمَزْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلَكُ الْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ

---

(١) حديث معاذ الطويل ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها ـ الحديث : بطوله فى صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف الى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى اسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَضْلاً مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَصِيَامٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لاَ يَرْحَمُ إِنْسَاناً قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَصَابَهُ بَلاَءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضَرَّ بِهِ بَلْ كَانَ يَشْمَتُ بِهِ أَنَا مَلَكُ الرَّحْمَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ وَصَلاَةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ مَعَهُ ثَلاَثَةُ آلاَفِ مَلَكٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ جَوَارِحَهُ اقْفِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي أَحْجُبُ عَنْ رَبِّي كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرِدْ بِهِ وَجْهَ رَبِّي إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى إِنَّهُ أَرَادَ رِفْعَةً عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَذِكْراً عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَصِيتاً فِي الْمَدَائِنِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ خَالِصاً فَهُوَ رِيَاءٌ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلَ الْمُرَائِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلاَئِكَةُ السَّمٰوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الْحُجُبَ كُلَّهَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لِلَّهِ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا الْعَمَلِ وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا وَتَقُولُ السَّمٰوَاتُ كُلُّهَا عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَتُنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » قال معاذ. قلت يارسول الله ، أنت رسول الله ، وأنا معاذ : قال « اقْتَدِ بِي وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ نَقْصٌ يَامُعَاذُ حَافِظْ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْءَانِ وَاحْمِلْ ذُنُوبَكَ عَلَيْكَ وَلاَ تَحْمِلْهَا عَلَيْهِمْ وَلاَ تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّهِمْ وَلاَ تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ وَلاَ تُدْخِلْ عَمَلَ الدُّنْيَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ وَلاَ تَتَكَبَّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ

وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ تَعَالَى (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا[1]) أَتَدْرِي مَنْ هُنَّ يَامُعَاذُ ؟ » قلت ماهن بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال « كِلاَبٌ فِي النَّارِ تَنْشُطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ » قلت بأبي أنت وأمي يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ؟ ومن ينجو منها ؟ قال « يَامُعَاذُ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ » قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرءان من معاذ ، للحذر مما في هذا الحديث

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رأى رجلا يطأطىء رقبته . فقال ياصاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب ، إنما الخشوع في القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده ، فقال أنت أنت لو كان هذا في بيتك؟ وقال علي كرم الله وجهه : للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان في الناس . ويزيد في العمل إذا أثني عليه ، وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفي في سبيل الله ، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس؟ قال لاشيء لك. فسأله ثلاث مرات ، كل ذلك يقول لاشيء لك ، ثم قال في الثالثة . إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، الحديث

وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أتحب أن تمقت ؟ قال لا . قال فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك . ولا يقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لاشريك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص مني . فقال لا بل أدعها لله ولك . فقال له عمر : ما صنعت شيئا ، إما أن تدعها لي فاعرف ذلك ، أو تدعها لله وحده . فقال ودعتها لله وحده فقال فنعم اذن . وقال الحسن ، لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة . لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه ، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة . وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق ، فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة . ويقال إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرائي ، ياغادر ، ياخاسر ، يافاجر ، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا.

---

(1) النازعات : ٢

وقال الفضيل بن عياض كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون . وقال عكرمة . إن الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله ، لأن النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه . المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو رجل صالح . وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء ! فلابد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة . إذا راءى العبد ، يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزىء بى . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة . قراء الرحمن ، وقراء الدنيا ، وقراء الملوك . وإن محمد ابن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل . من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلىّ .

وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمت بالليل ، فإنه أشرف من سمتك بالنهار ، لأن السمت بالنهار للمخلوقين ، وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك . إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان . فقيل له وكيف ذلك ؟ قال يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن أدهم ما صدق الله من أراد أن يشتهر

بيان

حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع . وإنما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير ، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها . فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله . فالمرائى هو العابد ، والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى إظهارها والرياء هو قصده إظهار ذلك . والمراءى به كثير ، وتجمعه خمسة أقسام ، وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس : وهو البدن ، والزى ، والقول ، والعمل ، والأتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة . إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات ، أهون من الرياء بالطاعات

القسم الأول : الرياء فى الدين بالبدن . وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وكثرة الاجتهاد ، وعظم الحزن على الدين . وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت ، استدل الناس بها على هذه الأمور ، فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم . وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته ، أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبى هريرة . وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء. ولذلك قال ابن مسعود. أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراآة أهل الدين بالبدن فأما أهل الدنيا، فيراءون بإظهار السمن ، وصفاء اللون واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن. وقوة الأعضاء وتناسبها

الثانى : الرياء بالهيئة والزى أما الهيئة . فبتشعيث شعر الرأس ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب، ولبس الصوف ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، وتركه مخرقا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين

ومن ذلك لبس المرقعة ، والصلاة على السجادة ، ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف فى الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة ، وإسبال الرداء على العينين ، ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان ، يلبسه من هو خال عن العلم ، ليوهم أنه من أهل العلم . والمراءون بالزى على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليرائى بغلظها ، ووسخها ، وقصرها ، وتخرقها ، أنه غير مكترث بالدنيا . ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح . وذلك لخوفه أن يقول

الناس قد بداله من الزهد ، ورجع عن تلك الطريقة ، ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك ، والوزراء ، والتجار . ولو لبسوا الثياب الفاخرة ، ردهم القراء . ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ، أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء . فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة فليبسونها . ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء . فيلتمسون القبول عند الفريقين . وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء . ولو كلفوا لبس الديبق ، والكتان الدقيق الأبيض ، والمقصب المعلم ، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم ، لعظم ذلك عليهم ، خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص ، فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه ، أو إلى مافوقه ، وإن كان مباحا . خيفة من المذمة

وأما أهل الدنيا : فمرا آتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الرفيعة ، وأنواع التوسع والتجمل في الملبس ، والمسكن ، وأثاث البيت ، وفره الخيول . وبالثياب المصبغة ، والطيالسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس ، فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ، مالم يبالغوا في الزينة

الثالث . الرياء بالقول . ورياء أهل الدين بالوعظ ، والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة ، وإظهارا لغزارة العلم ، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرءان ، ليدل بذلك على الخوف ، والحزن ، وادعاء حفظ الحديث ، ولقاء الشيوخ ، والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ، ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح ، لإظهار الفضل فيه . والمجادلة على قصد إفحام الخصم ، ليظهر للناس قوته في علم الدين . والرياء بالقول كثير ، وأنواعه لاتنحصر .

وأما أهل الدنيا، فرا آتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال، والتفاصح في العبارات، وحفظ النحو الغريب، للاغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب

الرابع: الرياء بالعمل. كمراآة المصلي بطول القيام، ومد الظهر، وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات، وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم، والغزو، والحج، وبالصدقة، وبإطعام الطعام، وبالإخبات في المشي عند اللقاء، كإرخاء الجفون، وتنكيس الرأس، والوقار في الكلام. حتى أن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين، رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار. فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه، ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه، يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العبّاد والصلحاء. ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة، مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء، وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضا مرائيا فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة، ليكون كذلك في الملأ، لا لخوف من الله وحياء منه. وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالتبختر، والاختيال وتحريك اليدين، وتقريب الخطا، والأخذ بأطراف الذيل، وإدارة العطفين، ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة

الخامس: المراآة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذي يتكلف أن يستزير عالما من العلماء. ليقال إن فلانا قد زار فلانا. أو عابدا من العبّاد، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته، ويترددون إليه. أو ملكا من الملوك، أو عاملا من عمال السلطان، ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذي يكثر ذكر الشيوخ، ليرى أنه لقي شيوخا كثيرة واستفاد منهم، فيباهي بشيوخه. ومباهته ومراآته تترشح منه عند مخاصمته فيقول لغيره من لقيت من الشيوخ، وأنا قد لقيت فلانا وفلانا، ودرت البلاد، وخدمت الشيوخ، وما يجري مجراه

فهذه مجامع ما يرائي به المراءون. وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد

ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه. فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق.

ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة فى ديره أو صومعته ، لتشوش قلبه ، ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ، ويسعى بكل حيلة فى إزالة ذلك من قلوبهم ، مع قطع طمعه من أموالهم ، ولكنه يحب مجرد الجاه ، فإنه لذيذ كما ذكرناه فى أسبابه ، فإنه نوع قدرة وكمال فى الحال وإن كان سريع الزوال، لايغتر به إلا الجهال. ولكن أكثر الناس جهال

ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد

ومنهم من يريد انتشار الصيت فى البلاد، لتكثر الرحلة إليه . ومنهم يريد الاشتهار عند الملوك ، لتقبل شفاعته ، وتنجز الحوائج على يده ، فيقوم له بذلك جاه عند العامة

ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام ، وكسب مال ، ولو من الأوقاف وأموال اليتامى ، وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين، الذين يراءون بالأسباب التى ذكرناها فهذه حقيقة الرياء، وما به يقع الرياء. فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل

فأقول : فيه تفصيل ، فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، فإن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد. ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات ، وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال ، وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكسب قليل من الجاه ، وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام حيث قال (إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1]) وكما أن المال فيه سم ناقع ، ودرياق نافع ، فكذلك الجاه . وكما أن كثير المال يلهى ويطغى ، وينسى ذكر الله والدار الآخرة ، فكذلك كثير الجاه بل أشد . وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام ، فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام ، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور ، كانصراف الهم إلى كثرة المال. ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصى القلب واللسان وغيرها

وأما سعة الجاه ، من غير حرص منك على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله إن زال . فلا ضرر فيه . فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاه الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ، ولا يوصف بالتحريم

---

(١) يوسف : ٥٥

فعلى هذا نقول . تحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراآة ، وهو ليس بحرام ، لأنه ليس رياء بالعبادة ، بل بالدنيا . وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة ، فكان ينظر فى حب الماء ، ويسوى عمامته وشعره . فقالت أو تفعل ذلك يارسول الله؟ قال « نَعَمْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لِإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ » نعم :هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة، لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق، وترغيبهم فى الاتباع ،واستمالة قلوبهم. ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه. فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله، لئلا تزدريه أعينهم. فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر. فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم، حذرا من ذمهم ولومهم ، واستروحا إلى توقيرهم واحترامهم، كان قد قصد أمرا مباحا. إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة، ويطلب راحة الأنس بالإخوان. ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم

فإذاً المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة . وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء ، لا فى معرض العبادة والصدقة ، ولكن ليعتقد الناس أنه سخى ، فهذا مراآة ،وليس بحرام .وكذلك أمثاله • أما العبادات، كالصدقة ،والصلاة ،والصيام والغزو ، والحج ، فللمرائى فيه حالتان : إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته ، لأن الأعمال بالنيات . وهذا ليس بقصد العبادة . ثم لا يقتصر على إحباط عبادته ، حتى نقول صار كما كان قبل العبادة ، بل يعصى بذلك ويأثم ، كما دلت عليه الأخبار والآيات . والمعنى فيه أمران :

أحدهما: يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر ،لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله ، وأنه من أهل الدين وليس كذلك . والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا،حتى لو قضى دين جماعة، وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به ، لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر فى حب الماء ويسوى عمامته وشعره ـ الحديث : ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الطهارة

والثاني : يتعلق بالله ، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله ، فهو مستهزىء بالله ولذلك قال قتادة : إذا راءى العبد ، قال الله لملائكته انظروا إليه كيف يستهزىء بي . ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار ، كما جرت عادة الخدم ؛ وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك ، أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك ، إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته ؛ بل قصد بذلك عبدا من عبيده . فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف ، لا يملك له ضرا ولا نفعا ! وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله ؟ إذ آثره على ملك الملوك ، فجعله مقصود عبادته . وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] الشرك الأصغر

نعم : بعض درجات الرياء أشد من بعض ، كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى . ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف ، بحسب ما به المراآة . ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله ، لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله ، فقد قصد غير الله . ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا . إلا أن الرياء هو الكفر الخفي ، لأن المرائي عظم في قلبه الناس ، فاقتضت تلك المعظمة أن يسجد ويركع ، فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه . ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود ، وبقي تعظيم الخلق ، كان ذلك قريبا من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده ، بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله . فمن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية الجهل . ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان ، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ، ونفعه ، ورزقه ، وأجله ، ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى . فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم ، وأقبل بقلبه عليهم ، ليستميل بذلك قلوبهم . ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة ، لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم ،

---

(١) حديث سمى الرياء الشرك الأصغر : أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود ابن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريبا وللحاكم وصحح اسناده من حديث شداد بن أوس كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر

لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا ! فكيف فى يوم لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ! بل تقول الأنبياء فيه نفسى، نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ،و نيل القرب عند الله ، مايرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس، فلاينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله ، من حيث النقل والقياس جميعا . هذا إذا لم يقصد الأجر . فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته، فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص، وقد ذكرنا حكمه فى كتاب الإخلاص ويدل على مانقلناه من الآثار، قول سعيد بن المسيب، وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلا

بيان

درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض . واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، و نفس قصد الرياء

الركن الأول : نفس قصد الرياء . وذلك لايخلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب . فإن كان كذلك ، فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب، أو أضعف، أو مساوية لإرادة العبادة. فتكون الدرجات أربعا

الأولى : وهى أغلظها ، أن لايكون مراده الثواب أصلا . كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لايصلى . بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس . فهذا جرّد قصده إلى الرياء ، فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس، وهو لايقصد الثواب ، ولو خلا بنفسه لما أدّاها . فهذه الدرجة العليا من الرياء

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضا، ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان فى الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل. ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل. فهذا قريب مما قبله ، وما فيه من شائبة قصد ثواب لايستقل بحمله على العمل ، لاينفى عنه المقت والإثم

الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل . فلما اجتمعا انبعثت الرغبة . أو كان كل واحد

منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل . فهذا قد أفسد مثل ما أصلح . فنرجو أن يسلم رأسا برأس ، لاله ولا عليه . أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب . وظواهر الأخبار تدل على أنه لايسلم ، وقد تكلمنا عليه فى كتاب الإخلاص

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لايترك العبادة : ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه . فالذى نظنه والعلم عند الله ، أنه لا يحبط أصل الثواب ، ولكنه ينقص منه ، أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويثاب على مقدار قصد الثواب . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان ، أو كان قصد الرياء أرجح

الركن الثانى : المراءى به وهو الطاعات . وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها

القسم الأول : وهو الأغلظ ، الرياء بالأصول . وهو على ثلاث درجات :

الأولى : الرياء بأصل الإيمان ، وهذا أغلظ أبواب الرياء . وصاحبه مخلد فى النار . وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة ، وباطنه مشحون بالتكذيب ، ولكنه يرائى بظاهر الإسلام . وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى ، كقوله عز وجل ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ[1]﴾ أى فى دلالتهم بقولهم على ضمائرهم . وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا[2]﴾ الآية وقال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ[3]﴾ وقال تعالى ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ[4]﴾ والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ، ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض . وذلك مما يقل فى زماننا . ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ، ميلا إلى قول الملحدة .

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٣) آل عمران : ١١٩ (٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ، ميلا إلى أهل الإباحة . أو يعتقد كفرا أو بدعة، وهو يظهر خلافه . فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين فى النار . وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر

الثانية : الرياء بأصول العبادات ، مع التصديق بأصل الدين . وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره ، فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها . أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع ، وعادته ترك الصلاة فى الخلوة . وكذلك يصوم رمضان ، وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر . وكذلك يحضر الجمعة ، ولولا خوف المذمة لكان لايحضرها . أو يصل رحمه أو يبر والديه ، لا عن رغبة ، ولكن خوفا من الناس ، أو يغزو ، أو يحج كذلك . فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله . يعتقد أنه لامعبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل ، وينشط عند اطلاع الناس . فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته فى محمدتهم أشد من رغبته فى ثواب الله . وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت ، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد

الثالثة : أن لا يرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ؛ ولكنه يكسل عنها فى الخلوة ، لفتور رغبته فى ثوابها ، ولإيثار لذة الكسل على مايرجى من الثواب . ثم يبعثه الرياء على فعلها . وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وغسل الميت . وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ، ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ؛ ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ، ولكنه دون ما قبله . فإن الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق ، وهذا أيضا قد فعل ذلك . واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله . وأما هذا فلم يفعل ذلك ، لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على الشطر من الأول ، وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهو أيضا على ثلاث درجات :

الأولى : أن يرائي بفعل ما فى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ، ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود ، وترك الالتفات ، وتمم القعود بين السجدتين . وقد قال ابن مسعود . من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عزوجل . أى أنه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاه . ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أومتكئا ، فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة ، كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملأ دون الخلوة . وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة ، أو من الحب الردىء ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته

وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق ، لا إكمالا لعبادة الصوم ، خوفا من المذمة . فهذا أيضاً من الرياء المحظور ، لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات . فإن قال المرائى إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود ، وكثرة الالتفات ، أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ، فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس . وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك ، وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك . فلو كان باعثك الدين ، لكان شفقتك على نفسك أكثر . وما أنت فى هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك ، لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ، ولا يبالى به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه . وذلك محال . بل من يراعى جانب غلام الملك ، ينبغى أن تكون مراقبته للملك أكثر ، نعم للمرائى فيه حالتان : إحداهما . أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعا . والثانية أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص فى تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتى عند الله ناقصة ، وآذانى الناس بذمهم وغيبتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ، ولا أرجوا عليه ثوابا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة ، فيفوت الثواب وتحصل المذمة . فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح

أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره النية ، فينبغي أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراآة بطاعة الله ، فإن ذلك استهزاء كما سبق .

الدرجة الثانية : أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ، ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته · كالتطويل فى الركوع والسجود ، ومد القيام ، وتحسين الهيئة ، ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى ، وتحسين الاعتدال ، والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان ، وطول الصمت . وكاختيار الأجود على الجيد فى الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

الثالثة : أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا . كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول ، وتوجهه إلى يمين الإمام ، ومايجرى مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لايبالى أين وقف ، ومتى يحرم بالصلاة .

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائى به ، وبعضه أشد من بعض ، والكل مذموم

الركن الثالث : المرائى لأجله . فإن للمرائى مقصودا لامحالة ، وإنما يرائى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لامحالة . وله أيضا ثلاث درجات .

الأولى: وهى أشدها وأعظمها ، أن يكون مقصوده التمكن من معصية . كالذى يرائى بعباداته ، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة ، أو الصدقات ، ليستأثر بما قدر عليه منها · أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها . أو تسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج ، فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة فى المعاصى . وقد يظهر بعضهم زى التصوف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكمة ، على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور . وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرءان ، يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرءان ، وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ، ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته ، واتخذوها آلة ومتجرا ، وبضاعة لهم فى فسقهم

ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم ، من هو مقترف جريمة اتهم بها ، وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه ، فيظهر التقوى لنفي التهمة ، كالذي جحد وديعة ، واتهمه الناس بها ،فيتصدق بالمال، ليقال إنه يتصدق بمال نفسه ، فكيف يستحل مال غيره. وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام ، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى

الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا ، من مال ، أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة . كالذي يظهر الحزن والبكاء، ويشتغل بالوعظ والتذكير ،لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء . فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة . وكالذي يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد،فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجها ابنته. فهذا رياء محظور ،لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا،ولكنه دون الأول،فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه

الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ ، وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ، ولا يعد من الخاصة والزهاد ، ويعتقد أنه من جملة العامة . كالذي يمشي مستعجلا ، فيطلع عليه الناس ، فيحسن المشي ويترك العجلة ، كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار . وكذلك إن سبق إلى الضحك ،أو بدا منه المزاح، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار ،فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ،وإظهار الحزن،ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه . والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير . وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون ، أو يصومون الخميس والإثنين ، أو يتصدقون ، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ، ويلحق بالعوام . ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئا من ذلك . وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء ، أو في الأشهر الحرم ، فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم . فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله . أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن إنه صائم ، وقد لا يصرح بأني صائم ، ولكن يقول لي عذر . وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ، ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا ، فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته . ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا ، تصريحا أو تعريضا ، بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم

أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان . ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه ، كى لا يظن به أنه يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ، ثم يذكر عذره فى معرض حكاية عرضا ، مثل أن يقول إن فلانا محب للإخوان ، شديد الرغبة فى أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألح علىّ اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه . ومثل أن يقول إن أمى ضعيفة القلب ، مشفقة علىّ ، تظن أنى لو صمت يوما مرضت ، فلا تدعنى أصوم . فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء ، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن . أما المخلص ، فإنه لا يبالى كيف نظر الخلق إليه . فإن لم يكن له رغبة فى الصوم ، وقد علم الله ذلك منه ، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله ، فيكون ملبسا . وإن كان له رغبة فى الصوم لله ، قنع بعلم الله تعالى ، ولم يشرك فيه غيره . وقد يخطر له أن فى إظهاره اقتداء غيره به ، وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور ، وسيأتى شرح ذلك وشروطه

فهذه درجات الرياء ، ومراتب أصناف المرائين ، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات . وإن من شدته أن فيه شوائب هى أخفى من دبيب النمل ، كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء ، فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب ، والله أعلم

بيان
الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلى وخفى فالجلى هو الذى يبعث على العمل ، ويحمل عليه ، ولو قصد الثواب . وهو أجلاه . وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده ، إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ، ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له ، وخف عليه ، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلى لمجرد رياء الضيفان ،

وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ، ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ، ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب . ومهما لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل ، لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته . فرب عبد يخلص فى عمله ، ولا يعتقد

الرياء بل يكرهه ويرده ، ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك ، وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفي ، منه يرشح السرور . ولولا التفات القلب إلى الناس ، لما ظهر سروره عند اطلاع الناس . فلقد كان الرياء مستكنا في القلب ، استكنان النار في الحجر ، فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور . ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ، ولم يقابل ذلك بكراهية ، فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء ؛ حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه ، بالتعريض والقاء الكلام عرضا وإن كان لا يدعو إلى التصريح . وقد يخفى فلا يدعو إلى الأظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل ، كإظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين ، وجفاف الريق ، وآثار الدموع ، وغلبة النعاس الدال على طول التهجد . وأخفى من ذلك أن أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ، ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه في البيع والشراء ، وأن يوسعوا له في المكان . فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، ووجد لذلك استبعادا في نفسه ، كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه . ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة ، لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه . ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ، ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء ، [1] أخفى من دبيب النمل . وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصديقون

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدءون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث لا أجر لكم ، قد استوفيتم أجوركم . وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب ابن منبه

---

(١) حديث في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل : أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني

أنه قال : إن رجلا من السواح قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان . فنخاف أن نكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم . إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكب من الناس ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس . فقال السائح ماهذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك . فقال للغلام . ائتنى بطعام . فأتاه ببقل ، وزيت ، وقلوب الشجر . فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا . فقال الملك . أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا . قال كيف أنت ؟ قال كالناس . وفى حديث آخر بخير . فقال الملك ماعند هذا من خير . فانصرف عنه . فقال السائح الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون لذلك فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم . كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة ، فيجازيهم الله فى القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل فى القيامة إلا الخالص ، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة ، وأنه يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزى والد عن ولده ويشتغل الصديقون بأنفسهم ، فيقول كل واحد نفسى نفسى ، فضلا عن غيرهم . فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة ، فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص لعلمهم بأن أرباب البوادى لا يروج عندهم الزائف والنبهرج ، والحاجة تشتد فى البادية ، ولا وطن يفزع إليه ، ولا حميم يتمسك به ، فلا ينجى إلا الخالص من النقد . فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة ، والزاد الذى يتزودونه له من التقوى .

فإذاً شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فإنه لو قطع طمعه عن البهائم ، لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا . فلو كان مخلصا قانعا بعلم الله ، لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ، ولا أجل ، ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب . كما لا يقدر عليه البهائم ، والصبيان ، والمجانين . فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، مفسدا للعمل ، بل فيه تفصيل

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله؟ أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول أولا : كل سرور فليس بمذموم . بل السرور منقسم إلى محمود ، وإلى مذموم : فأما المحمود ، فأربعة أقسام.

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق، علم أن الله أطلعهم ، وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به، ونظره إليه، وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة. ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم. وقد قال تعالى (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا [1]) فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به

الثاني : أن يستدل بإظهار الله الجميل ، وستره القبيح عليه في الدنيا ، أنه كذلك يفعل في الآخرة . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ » فيكون الأول فرحا بالقبول في الحال ، من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة ، فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا ، وأجر السر بما قصده أولا . ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ ، وموجب للسرور لا محالة .

الرابع : أن يحمده المطلعون على طاعته ، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ، وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده ، أو يذمه ويهزأ به ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه . فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره ، مثل فرحه بحمدهم إياه

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس ،

---

(١) حديث ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة: مسلم من حديث أبي هريرة

---

(١) يونس : ٥٨

حتى يمدحوه، ويعظموه، ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده، فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان

ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل، أو قبل الفراغ. فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل. إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالما عن الرياء، فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا مادخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم: لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار، فتحدث به وأظهره، فهذا مخوف. وفي الآثار والأخبار: مايدل على أنه يحبط. فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول: قرأت البارحة البقرة، فقال ذلك حظه منها. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]، أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يارسول الله فقال له «مَاصُمْتَ وَلاَ أَفْطَرْتَ» فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره، وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ابن مسعود، استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له، لما أن ظهر منه التحدث به. إذ يبعد أن يكون مايطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل. بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى، ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها. بخلاف مالو تغير عقده إلى الرياء

---

(١) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ماصمت ولاأفطرت: مسلم من حديث أبي قتادة قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لاصام ولاأفطر. وللطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه فقال رجل اني صائم قال بعض القوم انه لايفطر انه يصوم كل يوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصام ولاأفطر من صام الابد ولم أجده بلفظ الخطاب

قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا ، وكان قد عقد على الإخلاص ، ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل ، وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به ، حبط أجره ومثاله أن يكون فى تطوع ، فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره . وعليه الإعادة إن كان فى فريضة . وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] «الْعَمَلُ كَالْوِعَاءِ إِذَا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أَوَّلُهُ» أى النظر إلى خاتمته . وروى أنه[2] «من راءى بعمله ساعة ، حبط عمله الذى كان قبله . وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ، ولا على القراءة . فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى . والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر فى العمل ، وانتهض باعثا على الحركات . فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب ، وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه . لأنا نكتفى بالنية السابقة عند الإحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها . ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد ، وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط فى أمر هو أهون من هذا ، وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ، يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه ، قال قد اختلف الناس فى هذا ، فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول ، وركن إلى حمد المخلوقين ، ولم يختم عمله بالإخلاص ، وإنما يتم العمل بخاتمته

---

(١) حديث العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله : ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ اذا طاب أسفله طاب أعلاه وقد تقدم

(٢) حديث من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله : لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به ورواه مسلم من حديث ابن عباس

ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد فى العمل ، ولا آمن عليه . وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء . ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يارسول الله [1] ، أسر العمل لاأحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرنى . قال « لَكَ أَجْرَانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ » ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله لايضره أى لايدع العمل ، ولا تضره الخطرة وهو يريد الله . ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ

الثانى : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لاسرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا ، وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران!!

والثالث . أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبى هريرة ، بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى.

هذا ماذكره ، ولم يقطع به ، بل أظهر ميلا إلى الإحباط . والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره فى العمل ، بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين ، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع ، فلا يفسد العمل ، لأنه لم ينعدم به أصل نيته ، وبقيت تلك النية باعثة على العمل ، وحاملة على الإتمام . وأما الأخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ماإذا لم يرد به إلا الخلق . وأما ماورد فى الشركة فهو محمول على ماإذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب ، أو أغلب منه . أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه ، فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال . ولا ينبغى أن يفسد الصلاة . ولا يبعد أيضا أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ، والخالص مالايشوبه شيء ، فلا يكون مؤديا للواجب

---

(١) حديث ان رجلا قال أسر العمل لاأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال لك أجران ـ الحديث: البيهقى فى شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجر السر والعلانية

مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا فى كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن ، فليرجع إليه ، فهذ حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة ، إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ

القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد ، بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء . فإن استمر عليه حتى سلم ، فلا خلاف فى أنه يقضى ، ولا يعتد بصلاته . وإن ندم عليه فى أثناء ذلك ، واستغفر ورجع قبل التمام ، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه . قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف . وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ، وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة ، لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقدا . وقالت فرقة لا يلزمه إعادة شيء ، بل يستغفر الله بقلبه ، ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة ، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله . وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة ، فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل . فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لاتكون إلا لله . ولو سجد لغير الله لكان كافرا . ولكن اقترن به عارض الرياء ، ثم زال بالندم والتوبة ، وصار إلى حالة لا يبالى بحمد الناس وذمهم ، فتصح صلاته

ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا ، خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود ، دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة ، فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدح فى النية ، وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح

فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال . إن كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر ، لم ينعقد افتتاحه ، ولم يصح مابعده . وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة ، وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس ، فهذه صلاة لا نية فيها ، إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة

فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى ، إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم ، أو فى عقد صلاة وحج . فإن كان فى صدقة ، فقد عصى بإجابة باعث الرياء ، وأطاع بإجابة باعث الثواب

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1]) فله ثواب بقدر قصده الصحيح ، وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولا يحبط أحدهما الآخر

وإن كان فى صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية ، فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا . فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة . فقد عصى من وجه ، وأطاع من وجه إذ اجتمع فى قلبه الباعثان . ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة ، والاقتداء به باطل . حتى أن من صلى التراويح ، وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء ، بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه ، وخلا فى بيت وحده لما صلى ؛ لا يصح الاقتداء به . فإن المصير إلى هذا بعيد جدا . بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه ، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ، ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص.

فأما إذا كان فى فرض واجتمع الباعثان ، وكان كل واحد لا يستقل ، وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما ، فهذا لا يسقط الواجب عنه . لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله . وإن كان كل باعث مستقلا ، حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء ، فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ، ولم يؤد الواجب الخالص . ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه . كما لو صلى فى دار مغصوبة ، فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة فى الدار المغصوبة ، فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه . وتعارض الاحتمال فى تعارض البواعث فى أصل الصلاة

أما إذا كان الرياء فى المبادرة مثلا دون أصل الصلاة ، مثل من بادر إلى الصلاة فى أول الوقت لحضور جماعة ؛ ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء ، فهذا مما يقطع بصحة صلاته ، وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره . بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القدح فى النية

هذا فى رياء يكون باعثا على العمل ، وحاملا عليه . وأما مجرد السرور باطلاع الناس

---

(1) الزلزلة : ٧ ، ٨

عليه ، إذالم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر فى العمل ، فبعيد أن يفسد الصلاة

فهذا ماتراه لائقا ، بقانون الفقه . والمسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه . والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ، ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات ، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه ، والعلم عندالله عز وجل فيه ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو الرحمن الرحيم

بيان

دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات . وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فى شرب الأدوية المرة البشعة . وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم . إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض ، فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ، ويرسخ ذلك فى نفسه وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله ، وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه ، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ، ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا . وفى علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه ، والثانى: دفع ما يخطر منه فى الحال

المقام الأول : فى قلع عروقه واستئصال أصوله . وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول . وهى لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب ، وأنها الباعثة للمرائى ، ما روى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم [1] فقال . يارسول الله : الرجل يقاتل حمية . ومعناه أنه يأنف أن يقهر ، أو يذم بأنه مقهور مغلوب . وقال: والرجل يقاتل ليرى مكانه . وهذا هو طلب لذة الجاه

(١) حديث أبى موسى أن اعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ـ الحديث : متفق عليه

والقدر فى القلوب . والرجل يقاتل للذكر . وهذا هو الحمد باللسان. فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال ابن مسعود . إذا التقى الصفان نزلت الملائكة ، فكتبوا الناس على مراتبهم . فلان يقاتل للذكر . وفلان يقاتل للملك والقتال للملك إشارة إلى الطمع فى الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه . يقولون فلان شهيد ، ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ غَزَا لاَ يَبْغِي إِلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ، ولكن يحذر من ألم الذم ، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير ، فإنه يتصدق بالقليل كى لا يبخل . وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره . وكالجبان بين الشجعان ، لا يفر من الزحف خوفا من الذم ، وهو لا يطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم . وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل ، فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل ، وهو لا يطمع فى الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ، ولا يقدر على الصبر على ألم الذم . ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه ، خيفة من أن يذم بالجهل . ويفتى بغير علم ، ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم

فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك المرائى إلى الرياء . وعلاجه ماذكرناه فى الشطر الأول من الكتاب على الجملة . ولكنا نذكر الآن مايخص الرياء . وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما فى الحال ، وإما فى المآل . فإن علم أنه لذيذ فى الحال ، ولكنه ضار فى المآل . سهل عليه قطع الرغبة عنه . كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه . فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة

ومهما عرف العبد مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق ، وفى الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب العظيم ، والمقت الشديد ، والخزى الظاهر ، حيث ينادى على رءوس الخلائق يا فاجر ، يا غادر ، يا مرائى ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد ، واستهزأت بطاعة الله

---

(١) حديث من غزا لا يبغى الا عقالا فله مانوى : النسائى وقد تقدم

وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله . أما كان أحد أهون عليك من الله ؟ فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى ، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا ، بما يفوته فى الآخرة ، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ، ويهوى إلى النار . فلو لم يكن فى الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا فى معرفة ضرره . وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فى زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق . فإن رضا الناس غاية لا تدرك . فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق . ورضا بعضهم فى سخط بعضهم . ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له فى مدحهم ، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة

وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ، ولا رازق إلا الله . ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة . فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ، ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء ؟ وإذا أصاب فلا تفى لذته بألم منته ومذلته

وأما ذمهم فلم يحذر منه ، ولا يزيده ذمهم شيئا ما لم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند الله ؟ فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها ، فترت رغبته ، وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكفيه أن الناس لو علموا ما فى باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص ، لمقتوه . وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ، ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله .

ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه ، وحببه إليهم ، وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال فى مدحهم . ولا نقصان فى ذمهم ، كما قال شاعر من تميم [1] إن مدحى زين ، وإن ذمى شين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَذَبْتَ ذَاكَ اللهُ الذى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ » إذ لا زين إلا فى مدحه ، ولا شين إلا فى ذمه . فأى خير لك فى مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس ، وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين

فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد ، والمنازل الرفيعة عند الله ، استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة ، مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه ، وانصرف إلى الله قلبه ، وتخلص من مذلة الرياء ، ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ، ينشرح بها صدره ، وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ، ووحشته من الخلق ، واستحقاره للدنيا ، واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه ، وانحل عنه داعية الرياء ، وتذلل له منهج الإخلاص

فهذا وما قدمناه فى الشطر الأول ، هى الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء

وأما الدواء العملى . فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله ، واطلاعه على عباداته ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها ، فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه ، لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخص فى إظهار هذا القدر ، لأن فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها . فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة . وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله ، وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد . ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فمن العبد المجاهدة ، ومن الله الهداية . ومن العبد قرع الباب ، ومن الله فتح الباب . والله لا يضيع أجر المحسنين ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما

---

(١) حديث قال شاعر من بنى تميم إن مدحى زين إن ذمى شين فقال كذبت ذاك الله : حم من حديث الأقرع ابن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات الا أنى لا أعرف لابى سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الاقرع ورواه الترمدى من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل ان حمدى

المقام الثانى : فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة . وذلك لابد من تعلمه أيضا . فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة ، وقطع الطمع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم ، فالشيطان لا يتركه فى أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء . ولا تنقطع عنه نزغاته . وهوى النفس وميلها إلا ينمحى بالكلية . فلا بد وأن يتشمر لدفع مايعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة . قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد ، وقد تترادف على التدريج

فالأول : العلم باطلاع الخلق ، ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له ، والركون إليه ، وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول معرفة . والثانى حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد . وإنما كمال القوة فى دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثانى فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق ، أو رجاء اطلاعهم ، دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ؟ فأى فائدة فى علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ، يذكر ما رسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء ، وتعرضه للمقت عند الله فى القيامة ، وخيبته فى أحوج أوقاته إلى أعماله . فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة . إذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما

فإذاً لابد فى رد الرياء من ثلاثة أمور . المعرفة ، والكراهة ، والإباء . وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ، ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها . وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد ، واستيلاء الحرص عليه ، بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء ، وشؤم عاقبته ، إذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم . وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ، ثم يجرى من الأسباب مايشتد به غضبه ، فينسى سابقة عزمه ، ويمتلىء قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ، ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب ،

وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله .[1] بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت ، فأنسيناها يوم حنين حتى نودي ياأصحاب الشجرة ، فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف ، فنسيت العهد السابق ،حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الإيمان ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة. فإن الكراهة ثمرة المعرفة

وقد يتذكر الإنسان ، فيعلم أن الخاطر الذى خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ، ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة ، أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق ، وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه ، فتكون الحجة عليه أوكد ، إذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته ، وكونه مذموما عند الله . ولا تنفعه معرفته ، إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ، ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء ويعمل به ، لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة : وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل

فإذاً لا فائدة إلا فى اجتماع الثلاث ، وهى المعرفة ، والكراهة والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وقلة التفكر فيما عند الله ، وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة . وبعض ذلك ينتج بعضا ويثمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات ، فهو رأس كل خطيئة ، ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا ، هى التى تغضب القلب وتسلبه ، وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة ، والاستضاءة بنور الكتاب، والسنة ، وأنوار العلوم . فإن قلت :فمن صادف من نفسه كراهة الرياء ، وحملته الكراهة على الإباء ، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه،وحبه له،ومنازعته إياه،إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه ،وغير مجيب إليه فهل يكون فى زمرة المرائين؟

---

(١) حديث جابر بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ـ الحديث : مسلم مختصراً دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس

فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق ، وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن نزغانه ، ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها . و إنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين ، وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر . فإذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ماروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] شكوا إليه وقالوا. تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير ، أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق ، أحب إلينا من أن نتكلم بها . فقال عليه السلام « أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا نعم قال « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له . ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة . والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى . فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة ، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى

وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال [2] « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْوَسْوَسَةِ » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك ، وكرهته نفسك لنفسك ، فلا يضرك ماهو من عدوك . وما كان من نفسك ، فرضيته نفسك لنفسك ، فعاتبها عليه . فإذاً وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك ، مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة . والخواطر التى هى العلوم ، والتذكرات ، والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء ، هى من الشيطان . والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس . والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل . إلا أن للشيطان ههنا مكيدة ، وهى أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء ، خيل إليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال ، حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب . لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله ، فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله

---

(١) حديث شكوى الصحابة مايعرض فى قلوبهم وقوله ذلك صريح الايمان : مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الايمان والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه ورواه النسائى فيه من حديث عائشة

(٢) حديث ابن عباس الحمد لله الذى رد كيده الشيطان الى الوسوسة : أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ كيده

والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب

الأولى : أن يرده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه ، بل يشتغل بمجادلته ، ويطيل الجدال معه ، لظنه أن ذلك أسلم لقلبه . وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله ، وعن الخير الذى هو بصدده ، وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك

الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك ، فيقتصر على تكذيبه ودفعه ، ولا يشتغل بمجادلته

الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا ، لأن ذلك وقفة . وإن قلت بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان ، فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص ، والاشتغال بالله ، وإخفاء الصدقة والعبادة ، غيظا للشيطان . وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ، ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانا يذكرك . فقال والله لأغيظن من أمره . قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان . اللهم اغفر له . أى لأغيظنه بأن أطيع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة ، كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته

وقال إبراهيم التيمى : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعه ، وليحدث عند ذلك خيرا . فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك وإذا رآك مداوما ملك وقلاك . وضرب الحارث المحاسبى رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث ، لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا . فحسدهم على ذلك ضال مبتدع ، وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد منهم وصرفه عن ذلك ، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة ، فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر

تأخره . فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه فوقف، فدفع فى نحر الضال ، ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث ، فلم يلتفت إليه ، ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . فمر الرابع ، فلم يتوقف له ؛ وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته، وترك التأنى فى المشى . فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير، فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغانه، فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه إنتظار الوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟

قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان، لأنهم انقطعوا إلى الله ، واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم ، وخنس عنهم ، كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة إلى الخمر والزنا ، فصارت ملاذ الدنيا عندهم ، وإن كانت مباحة ، كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية ، فلم يبق للشيطان إليهم سبيل ، فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ، ونقص توكله . فمن أيقن بأن لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره . ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ، ولا يكون إلا ما أراده الله ، فهو الضار والنافع ، والعارف يستحيي منه أن يحذر غيره . فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر

وقالت فرقة من أهل العلم لابد من الحذر من الشيطان . وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر، وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية ، فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا . إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغانه فكيف يتخلص غيرهم ! وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا . بل فى صفات الله تعالى وأسمائه، وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك . ولا ينجو أحد من الخطر فيه. ولذلك قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ [1]) وقال النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحج : ٥٢

(١) « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي » (٢) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير . فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور . ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان . ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فى الجنة التى هى دار الأمن والسرور ، بعد أن قال الله لهما (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١)) ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة ، وأطلق له وراء ذلك ما أراد . فإذا لم يأمن نبى من الأنبياء وهو فى الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان ، فكيف يجوز لغيره أن يأمن فى دار الدنيا ، وهى منبع المحن والفتن ، ومعدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ! وقال موسى عليه السلام ، فيما أخبر عنه تعالى (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ (٢)) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ (٣)) وقال عز وجل (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ (٤)) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان . فكيف يدعى الأمن منه ؟ . وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافى الاشتغال بحب الله . فإن من الحب له امتثال أمره . وقد أمر بالحذر من العدو ، كما أمر بالحذر من الكفار . فقال تعالى (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ (٥)) وقال تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ (٦)) فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان فكيف وليس فى الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة ؛ وفى إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية فى ظنهم أن ذلك قادح فى التوكل . فإن أخذ الترس والسلاح ، وجمع الجنود ، وحفر الخندق ، لم يقدح فى توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكيف يقدح

---

(١) حديث انه ليغان على قلبى : تقدم

(٢) حديث ان شيطانه أسلم فلا يأمر الا بخير : تقدم أيضا

---

(١) طه : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ (٢) القصص : ١٥ (٣ و ٤) الأعراف : ٢٧ (٥) النساء : ١٠٢ (٦) الانفال : ٦٠

في التوكل الخوف مما خوف الله به ، والحذر مما أمر بالحذر منه ! . وقد ذكرنا في كتاب التوكل مايبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية . وقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ[1]﴾ لايناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع ، والحيي ، والمميت هو الله تعالى . فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا مااختاره الحارث المحاسبي رحمه الله ، وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم . وما قبله يشبه أن يكون من كلام العبّاد الذين لم يغزر علمهم ، ويظنون أن مايهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام ، وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر . فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدوّ ، فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره ، والحذر منه ، والترصد له فإنا إن غفلنا عنه لحظة ، فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله ، واشتغال الهم كله بالشيطان ، وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ، ولا ننسى الشيطان وعداوته ، والحاجة إلى الحذر منه . فنجمع بين الأمرين فإنا إن نسيناه ربما عارض من حيث لا نحتسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله . فالجمع أولى

وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان . أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله ، فلا يخفى غلطه . وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر ، فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا ، وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى . فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب ، وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به ، فيوشك أن يظفر به ، ولا يقوى على دفعه . فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ، ولا بإدمان ذكره

وأما الفرقة الثانية : فقد شاركت الأولى ، إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله . وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ، إبليس وغيره . فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ، ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به ، وسكن الحذر فيه ، فيشتغل بذكر الله ، ويكب

---

[1] الانفال : ٦٠

عليه بكل الهمة ، ولا يخطر بباله أمر الشيطان . فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته، ثم خطر الشيطان له تنبه له : وعند التنبه يشتغل بدفعه . والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان . بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر ، وينام على أن يتنبه فى ذلك الوقت ، فيتنبه فى الليل مرات قبل أوانه ، لما أسكن فى قلبه من الحذر . مع أنه بالنوم غافل عنه . فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ! ومثل هذا القلب هو الذى يقوى على دفع العدو ، إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى ، وأحيا فيه نور العقل والعلم ، وأماط عنه ظلمة الشهوات

فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده ، وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافى. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر . والذى جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ، ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر ، فيطول تعبه ، ولا تجف البئر من الماء القذر . والبصير هو الذى جعل لمجرى الماء القذر سدا ، وملأها بالماء الصافى فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ، ومؤنة ، وزيادة تعب

بيان

الرخصة فى قصد إظهار الطاعات

اعلم أن فى الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص ، والنجاة من الرياء . وفى الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس فى الخير . ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين . ولكن فى الإظهار أيضا فائدة . ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[1])

والإظهار قسمان . أحدهما فى نفس العمل ، والآخر بالتحدث بما عمل

القسم الأول : إظهار نفس العمل ، كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها . كما روى عن الأنصارى

---

(١) البقرة : ٢٧١

الذى جاء بالصرة ، فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهاَ كَانَ لَهُ أَجْرُها وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ » وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة ، والصيام ، والحج ، والغزو وغيرها ، ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازى إذا هم بالخروج ، فاستعد وشد الرحل قبل القوم، تحريضا لهم على الحركة ، فذلك أفضل له . لأن الغزو فى أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره . فالمبادرة إليه ليست من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد . وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل ، لينبه جيرانه وأهله ، فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء

وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة ، فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ، ويرغب الناس فى الصدقة ، فالسر أفضل . لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء ، فقد اختلف الناس فى الأفضل . فقال قوم السر أفضل من العلانية ، وإن كان فى العلانية قدوة وقال قوم السر أفضل من علانية لا قدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء ، وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ، ويدل عليه قوله عليه السلام « لَهُ أَجْرُهاَ وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهاَ » وقد روى فى الحديث [٢] أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا . ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا . وهذا لا وجه للخلاف فيه ، فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتم الإخلاص على وجه

---

(١) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه : وفى أول قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلى

(٢) حديث ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا : البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أو يضاعف الذكر الخفى الذى لا يسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف

واحد في الحالتين ، فما يقتدى به أفضل لامحالة . وإنما يخاف من ظهور الرياء ؛ ومهما حصلت شائبة الرياء ، لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان

إحداهما : أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به ، أو يظن ذلك ظنا . ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق ، وذموه ولم يقتدوا به . فليس له الإظهار من غير فائدة . وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ، ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به

والثانية : أن يراقب قلبه . فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي ، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل ، وبكونه يقتدى به . وهذا حال كل من يظهر أعماله ، إلا الأقوياء المخلصين ، وقليل ماهم . فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر . فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم ، فأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك . والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة . وليت كان الهلاك بالرياء مثله . لا بل عذابه دائم مدة مديدة . وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص ، فتحبط أجورهم بالرياء . والتفطن لذلك غامض . ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ، ويكون لك في السر مثل أجر الإعلام . فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به ، وهو المظهر للعمل ، فباعثه الرياء دون طلب الأجر ، واقتداء الناس به ، ورغبتهم في الخير . فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار ، لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراآتهم . فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئا . والسلامة في الإخفاء وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء

القسم الثانى : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل نفسه . والخطر فى هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء ، لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس فى عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به ، والرغبة فى الخير بسببه ، فهو جائز . بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب فى الخير ، والترغيب فى الخير خير

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ . ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق

وقال عمر رضى الله عنه : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر ، لأنى لا أدرى أيهما خير لى وقال ابن مسعود : ماأصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضى الله عنه[1] ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال شداد بن أوس : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه ، وكان قد قال لغلامه : ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتى ندرك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا على ، فإنى ما أحدثت ذنبا منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ماقضى الله فى بقضاء قط فسرنى أن يكون قضى لى بغيره . وما أصبح لى هوى إلا فى مواقع قدر الله

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المراآة إذا صدرت ممن يرائى بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التى ذكرناها . فلا ينبغى أن يسد باب إظهار الأعمال ، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء . بل إظهار المرائى للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء ، فيه خير كثير للناس ، ولكنه شر للمرائى .

---

(١) حديث عثمان قوله ماتغنيت ولاتمنيت ولامسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى الموصلى فى معجمه باسناد ضعيف من رواية أنس عنه فى أثناء حديث وان عثمان قال يارسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك ياعثمان

فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله . وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان فى سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين بالقرءان من البيوت . فصنف بعضهم كتابا فى دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف . فإظهار المرائى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه . [1] وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم ، كما ورد فى الأخبار . وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم

بيان

الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له

إعلم أن الأصل فى الإخلاص استواء السريرة والعلانية ، كما قال عمر رضى الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية . قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحى منه . وقال أبو مسلم الخولانى : ما عملت عملا أبالى أن يطلع الناس عليه ، إلا إتيانى أهلى ، والبول ، والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه ، وهو يخفيها ، ويكره اطلاع الناس عليها ، لاسيما ما تختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى . والله مطلع على جميع ذلك . فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور ، وليس كذلك . بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى ، مع أنه ليس كذلك . فهذا هو ستر المرائى . وأما الصادق الذى لا يرائى ، فله ستر المعاصى ، ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه

الأول : أن يفرح بستر الله عليه . وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره ، وخاف أن يهتك ستره فى القيامة . إذ ورد فى الخبر [2] أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنبا ، ستره الله عليه فى الآخرة . وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان

---

(١) حديث إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم : هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم والثانى رواه النسائى من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضا

(٢) حديث ان من ستر عليه فى الدنيا يستر عليه فى الآخرة : تقدم قبل هذا بورقة

الثانى : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ، ويحب سترها ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ » فهو وإن عصى الله بالذنب ، فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصى . وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ، ويغتم بسببه

الثالث : أن يكره ذم الناس له به ، من حيث أن ذلك يغمه ، ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى . فإن الطبع يتأذى بالذم ، وينازع العقل ، ويشغل عن الطاعة . وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان . إذ صدق الرغبة فى فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان

الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فإن الذم مؤلم للقلب ، كما أن الضرب مؤلم للبدن . وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ، ولا الإنسان به عاص . وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ، ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم . وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به ، نعم : كمال الصدق فى أن تزول عنه رؤيته للخلق : فيستوى عنده ذامه ومادحه ، لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون . وذلك قليل جدا . وأكثر الطباع تتألم بالذم ، لما فيه من الشعور بالنقصان . ورب تألم بالذم محمود ، إذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين ، فإنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى ، وعلى نقصان فى الدين . فكيف لا يغتم به ! نعم : الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يحب أن يحمد بالورع . ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره . فإن وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد . وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع ، فليس بمذموم . فله الستر حذرا من ذلك . ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ، ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما . فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ، إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم . وأما الذم فإنه مؤلم . فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال . وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد

---

(١) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله : الحاكم فى المستدرك وقد تقدم

وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله . فإن ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذام قد عصى الله تعالى به . وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا ، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره ، بخلاف التوجع من جهة الطبع

السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه . وهذا وراء ألم الذم. فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته ، وإن كان ممن يؤمن شره . وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه

السابع : مجرد الحياء ، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر . وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل ، فيستحيي من القبائح إذا شوهدت منه . وهو وصف محمود ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الْحَلِيمَ » فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس ، جمع إلى الفسق التهتك ، والوقاحة ، وفقد الحياء . فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحيي . إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ، ومشتبه به اشتباها عظيما ، قل من يتفطن له . ويدعي كل مراء أنه مستحي ، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب . بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم ، وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ، ويتصور أن يرائي معه . وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ، ونفسه لا تسخو بإقراضه ، إلا أنه يستحيي من رده . وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحيي ، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب . فله عند ذلك أحوال.

أحدها : أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالي ، فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له

---

(١) حديث الحياء خير كله: مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٢) حديث الحياء شعبة من الايمان: متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٣) حديث الحياء لا يأتي إلا بخير: متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث ان الله يحب الحيي الحليم: الطبراني من حديث فاطمة والبزار من حديث أبي هريرة ان الله يحب الغني الحليم المتعفف وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

فإن المستحي إما أن يتعلل أو يقرض . فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال. أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء ، بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى يثني عليك، ويحمدك ، وينشر اسمك بالسخاء . أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل. فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء. ويبقى في نفسه البخل، فيتعذر الإعطاء. فيهيج داعي الإخلاص ويقول له · إن الصدقة بواحدة ، والقرض بثمان عشرة ، ففيه أجر عظيم ، وإدخال سرور على قلب صديق. وذلك محمود عند الله تعالى. فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيّج الحياء إخلاصه

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ، ولا خوف من مذمته ، ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه ، فأعطاه بمحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده · ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل ، لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه . فهذا مجرد الحياء ، ولا يكون هذا إلا في القبائح ، كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرائي يستحي من المباحات أيضا، حتى أنه يرى مستعجلا في المشي فيعود إلى الهدوء، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويزعم أن ذلك حياء ، وهو عين الرياء. وقد قيل إن بعض الحياء ضعف ، وهو صحيح . والمراد به الحياء مما ليس بقبيح ، كالحياء من وعظ الناس ، وإمامة الناس في الصلاة . وهو في الصبيان والنساء محمود ، وفي العقلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ ؛ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه ، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم . وهذا الحياء حسن . وأحسن منه أن تستحي من الله ، فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوي يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس ، والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب

الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به . وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة، وهو القدوة ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به . وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفي العاصي أيضا معصيته من أهله وولده، لأنهم يتعلمون منه

ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع، كان مرائيا، كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح ، وحبهم إياه بسببه ، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم [١] . دلني على ما يحبني الله عليه ، ويحبني الناس ، قال « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَانْبُذْ إِلَيْهِمْ هَـذَا الْحُطَـامَ يُحِبُّوكَ »

فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا ، وقد يكون محمودا ، وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك . فإنه تعالى إذا أحب عبدا حببه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك ، وغزوك ، وصلاتك ، وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة . فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال ، فلا فرق بينهما

بيان

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به . وذلك غلط وموافقة للشيطان . بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره

وهو أن الطاعات تنقسم إلى ما لا لذة في عينه ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والغزو ، فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيذ ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى ما هو لذيذ ، وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق ، كالخلافة ، والقضاء ، والولايات ، والحسبة ، وإمامة الصلاة ، والتذكير والتدريس ، وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ، ولما فيه من اللذة

القسم الأول ، الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ، ولا لذة في عينها كالصوم ، والصلاة ، والحج . فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل ، فيبعث على الابتداء لرؤية الناس ، وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه .

---

(١) حديث قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله ـ الحديث : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ وازهد فيما في أيدي الناس وقد تقدم

فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة . فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ، ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك ، لا تسخين بالعمل لأجله ، وتسخين بالعمل لأجل عباده ، حتى يندفع باعث الرياء ، وتسخو النفس بالعمل لله ، عقوبة للنفس على خاطر الرياء ، وكفارة له ؛ فليشتغل بالعمل

الثانية : أن ينبعث لأجل الله ، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها . فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأنه وجد باعثا دينيا ؛ فليشرع في العمل ، وليجاهد نفسه في دفع الرياء ، وتحصيل الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها ، من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول

الثالثة : أن يعقد على الإخلاص ، ثم يطرأ الرياء ودواعيه . فينبغي أن يجاهد في الدفع ، ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص . ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتمم العمل . لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت ، فيدعوك إلى الرياء . فإذا لم تجب ودفعت ، بقي يقول لك . هذا العمل ليس بخالص ، وأنت مراء ، وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه ؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل . فإذا تركته فقد حصلت غرضه

ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا ، كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ، ويقول أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله ، وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له

ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مراء ، فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان . لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضره قولهم ، ويفوته ثواب العبادة . وترك العمل خوفا من قولهم إنه مراء هو عين الرياء ، فلولا حبه لمحمدتهم ، وخوفه من ذمهم ، فماله ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مراء ، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر ، بل ترك العمل أشد من ذلك

فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال . ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل ، والشيطان لا يخليه ، بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتهي الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تهرب . فإن هربت ودخلت

سربا تحت الأرض ، ألتى فى قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم ، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك . فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء ، وهو أنه ضرر فى الآخرة ، ولا نفع فيه فى الدنيا ، لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالى ، وإن نزغ العدو نازغ الطبع ، فإن ذلك لاينقطع . وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات

فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل ، فلا تترك العمل ، وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك . بل إن قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك ، وعقوبة لنفسك ، فافعل . فإن قال لك الشيطان أنت مراء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهة الرياء ، وإبائه ، وخوفك منه ، وحيائك من الله تعالى .

وإن لم تجد فى قلبك له كراهية ، ومنه خوفا ، ولم يبق باعث دينى ، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع فى العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعى دخل عليه إنسان وهو يقرأ ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال ، لايرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت . وإذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن : إن كان أحدهم ليمر بالأذى مايمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة . وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة

قلنا هذا يعارضه ماورد من إظهار الطاعات ممن لايحصى وإظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ ، أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء ، وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز . والكلام فى الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء : فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد فى الإخلاص ، ولايتركه . وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف . فالاقتداء ينبغى أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق ابراهيم النخعى المصحف ، فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله ، واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته . فرأى أن لايراه فى القراءة

أبعد عن الرياء ، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة ، وإقبال الناس عليه ، وشغلهم اباه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق . فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها ، لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمى إذا أعجبك الكلام فاسكت ، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام ، كالفصاحة فى الحكايات وغيرها ، فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور . فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم فى الكلام فهو واقع فى القسم الثانى . وإنما كلامنا فى العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات . ثم كلام الحسن فى تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ، ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ، ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة ، وزجرا عن طلبها .

القسم الثانى : ما يتعلق بالخلق ، وتعظم فيه الآفات والأخطار . وأعظمها الخلافة ، ثم القضاء ، ثم التذكير والتدريس والفتوى ، ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة فهى من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لَيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتِّينَ عَامًا » فأعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةٌ الْإِمَامُ الْمُقْسِطُ » أحدهم . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ » رواه أبو سعيد الخدرى

---

(١) حديث ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما : الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط : مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط ـ الحديث : ولم أر فيه ذكر الاولية

(٣) حديث أبى هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل : تقدم

(٤) حديث أبى سعيد الخدرى أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة امام عادل : الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفى وهو ضعيف عنه وفيه أيضا اسحاق بن ابراهيم الديباجى ضعيف أيضا .

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات . ولم يزل المتقون يتركونها ، ويحترزون منها ، ويهربون من تقلدها ، وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ، ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر ، وهو أعظم ملاذ الدنيا . فإذا صارت الولاية محبوبة ، كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه ، فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقا . ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلا وعند ذلك يهلك ؛ ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة ، بمفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول ما يأخذها بما فيها . وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[1] « مَامِنْ وَالِي عَشَرَةٍ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ » رواه معقل بن يسار . وولاه عمر ولاية ، فقال يا أمير المؤمنين أشر علي ، قال اجلس واكتم عليّ وروى الحسن ، أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم[2] ، فقال للنبي خر لي ، قال « اجْلِسْ » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم[3] « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا »

وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر . لا تأمر على اثنين ، ثم ولي هو الخلافة فقام بها . فقال له رافع

---

(١) حديث مامن والي عشرة الاجاء يوم القيامة يده مغلولة الى عنقه لا يفكها إلا عدله : أحمد من حديث عبادة ابن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البزار والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه ــ الحديث : وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة : متفق عليه

(٢) حديث الحسن ان رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم خر لي قال اجلس الطبراني موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم صدوق

(٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة لاتسل الامارة ــ الحديث : متفق عليه

ألم تقل لى لاتأمر على اثنين ، وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال بلى وأنا أقول لك ذلك ، فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله . يعنى لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا ، وليس كذلك . بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين ، لاينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات . وأن الضعفاء لاينبغى أن يدوروا بها فيهلكوا . وأعنى بالقوى الذى لاتميله الدنيا ، ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم ، وزهدوا فى الدنيا ، وتبرموا بها ، وبمخالطة الخلق ، وقهروا أنفسهم وملكوها ، وقمعوا الشيطان فأيس منهم . فهؤلاء لايحركهم إلا الحق ، ولا يسكنهم إلا الحق ، ولو زهقت فيهم أرواحهم . فهم أهل نيل الفضل فى الإمارة والخلافة . ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات

ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق ، كافة عن الشهوات فى غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية ، وأن تستحلى الجاه ، وتستلذ نفاذ الأمر ، فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ، فهذا قد اختلف العلماء فى أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية . فقال قائلون لايجب ، لأن هذا خوف أمر فى المستقبل ، وهو فى الحال لم يعهد نفسه إلا قوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس . والصحيح أن عليه الاحتراز ، لأن النفس خداعة ، مدعية للحق ، واعدة بالخير . فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية . فكيف إذا أظهرت التردد ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع . فالعزل مؤلم . وهو كما قيل : العزل طلاق الرجال . فإذا شرع لاتسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق ، وتهوى به فى قعر جهنم . ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت ، إلا أن يعزل قهرا . وكان فيه عذاب عاجل على كل محب الولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية ، وحملت على السؤال والطلب ، فهو إمارة الشر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّا لَا نُوَلِّى أَمْرَنَا مَنْ سَأَلَنَا » فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف ، علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ، ثم تقلده لها ليس بمتناقض

---

(١) حديث إنا لانولى أمرنا من سألناه : متفق عليه من حديث أبى موسى

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة ، فهو فى معناها . فإن كل ذى ولاية أمير . أى له أمر نافذ . والإمارة محبوبة بالطبع . والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « اَلْقُضَاةُ ثَلاَثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام [2] « مَنِ اسْتُقْضِيَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » فحكمه حكم الإمارة ، ينبغى أن يتركه الضعفاء ، وكل من للدنيا ولذاتها وزن فى عينه . وليتقلده الأقوياء ، الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلمة ، ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم ، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ، ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه ، أو لم يطيعوه . فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له فى الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله . فإن لم تسمح نفسه بذلك ، فهو إذاً يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ، وهو مع الظلمة فى الدرك الأسفل من النار ؟ . وأما الوعظ ، والفتوى ، والتدريس ، ورواية الحديث ، وجمع الأسانيد العالية ، وكل ما يتسع بسببه الجاه ، ويعظم به القدر ، فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات . وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا . ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لى ودفن بشر كذا وكذا قمطرا من الحديث ، وقال يمنعنى من الحديث أنى أشتهى أن أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت

والواعظ يجد فى وعظه وتأثر قلوب الناس به ، وتلاحق بكائهم ، وزعقاتهم ، وإقبالهم عليه ، لذة لا توازيها لذة . فإذا غلب ذلك على قلبه ، مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام ، وإن كان باطلا . ويفر عن كل كلام يستثقله العوام ، وإن كان حقا . ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ، ويعظم منزلته فى قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر . وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة ، وطريق سلوك سبيل الدين ، ليعمل به أولا

(١) حديث القضاة ثلاثة ـ الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم وإسناده صحيح

(٢) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين : أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ من جعل قاضيا وفى رواية من ولى القضاء وإسناده صحيح

ثم يقول : إذا أنعم الله عليّ بهذه النعمة ، ونفعني بهذه الحكمة ، فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة ، فحكمه حكم الولايات . فمن لاباعث له إلا طلب الجاه والمنزلة، والأكل بالدين ، والتفاخر والتكاثر . فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه . إلى أن ترتاض نفسه ، وتقوى في الدين همته ، ويأمن على نفسه الفتنة . فعند ذلك يعود إليه

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست ، وعم الجهل كافة الخلق

فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] عن طلب الإمارة ، وتوعد عليها ، حتى قال [2] « إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ ، وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا » وقال [3] « نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن ، وخربت البلاد وتعطلت المعايش . فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبيّ بن كعب حين رأى قوما يتبعونه ، وهو في ذلك يقول أبيّ سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرءان ، فمنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع ، ومذلة على التابع . وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه

واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح ، فمنعه . فقال أتمنعني من نصح الناس ؟ فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم ، كالوعظ والتدريس والفتوى . وفي كل واحد منهما فتنة ولذة ، فلا فرق بينهما

فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم ، فهو غلط . إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء . بل الرياسة وحبها يضطر الخلق

---

(١) حديث النهى عن طلب الامارة : وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسل الامارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث

(٢) حديث انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الا من أخذها بحقها : البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله إلا من أخذها بحقها وزاد في آخره فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة ودون قوله حسرة وهي في صحيح ابن حبان

(٣) حديث نعمت المرضعة وبئست الفاطمة : البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله ورواه ابن حبان بلفظ فبئست المرضعة وبئست الفاطمة

(٤) حديث النهى عن القضاء : مسلم من حديث أبي ذر لا تؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم

إلى طلبها . وكذلك حب الرياسة لايترك العلوم تندرس . بل لوحبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التى فيها القبول والرياسة ، لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم . فلا تشغل قلبك بأمر الناس ، فإن الله لايضيعهم . وانظر لنفسك . ثم إنى أقول مع هذا إذا كان فى البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا ، فليس فى النهى عنه إلا امتناع بعضهم . وإلا فيعلم أن كلهم لايمتنعون ، ولا يتركون لذة الرياسة . فإن لم يكن فى البلد إلا واحد ، وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه . وحسن سمته فى الظاهر ، وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها ، فلا نمنعه منه ، ونقول له اشتغل وجاهد نفسك . فإن قال لست أقدر على نفسى ، فنقول اشتغل وجاهد ، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لاقائم به غيره . ولو واظب وغرضه الجاه ، فهو الهالك وحده . وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم . ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَـٰذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ »

ثم الواعظ هو الذى يرغب فى الآخرة ، ويزهد فى الدنيا بكلامه، وبظاهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الأعصار ، من الكلمات المزخرفة ، والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار ، مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين ، وتخويف للمسلمين ، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيبات النكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ ، جميل الظاهر ، يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره . وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ، ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام : ياعلماء السوء ، تصومون وتصلون ، وتتصدقون ، ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون مالا تعملون ، فياسوء ماتحكمون تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم: النسائى وقد تقدم قريبا

كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل فى صدوركم . ياعبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم . فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى ناس أخس منكم ؟ لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون فى محلة التحيرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم ، مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة معطلة. ياعبيد الدنيا ، لا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام .توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى .فيوقفكم على سوآتكم، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم

وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث فى بعض كتبه ، ثم قال . هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا . فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ، ولكن ورد فى العلم والوعظ رغائب كثيرة، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى وَاتُّبِعَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ، ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك

فاعلم أن فضل العلم كبير ؛ وخطره عظيم . كفضل الخلافة والإمارة . ولا نقول لأحد

---

(١) حديث لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها: متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ خير لك من حمر النعم وقد تقدم فى العلم

(٢) حديث أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه: ابن ماجه من حديث أنس بزيادة فى أوله ولمسلم من حديث أبى هريرة من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ـ الحديث:

من عباد الله اترك العلم ، إذ ليس فى نفس العلم آفة . وإنما الآفة فى إظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث . ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء . أما إذا لم يحركه إلا الرياء ، فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها . أما إذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره ، فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء فى العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم فى الولايات ، وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم ، وبالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ، والآفات فيها عظيمة . وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة .

الثانية : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والغزو . وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة ، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها ، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة .

الثالثة : وهى متوسطة بين الرتبتين ، وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى ، والرواية والتدريس . والآفاتُ فيها أقل مما فى الولايات ، وأكثر مما فى الصلاة . فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوىّ ، ولكن يدفع خاطر الرياء . والولاياتُ ينبغى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء . ومناصب العلم بينهما . ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه ، وأن الحذر منه فى حق الضعيف أسلم ، والله أعلم

وههنا رتبة رابعة ، وهى جمع المال ، وأخذه للتفرقة على المستحقين . فإن فى الإنفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفى إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس . والآفاتُ فيها أيضا كثيرة . ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به ، فقال القاعد أفضل . لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما يسرنى أنى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها . أما إنى لا أحرم البيع والشراء ، ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وقد اختلف العلماء ، فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال ، وسلم منها ، وتصدق بها ، فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل . وقال قوم : الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله.

وقد قال المسيح عليه السلام : ياطالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبرّ . وقال : أقل مافيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله ، وذكرُ الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات

فأما من يتعرض لآفة الرياء ، فتركه لها أبر ، والاشتغال بالذكر لاخلاف فى أنه أفضل وبالجملة مايتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات . والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فإن عجز فلينظر ، وليجتهد ، وليستفت قلبه ،وليزن مافيه من الخير بما فيه من الشر ،وليفعل مايدل عليه نور العلم دون مايميل إليه الطبع . وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لاتشير إلا بالشر ، وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لايبعد ذلك أيضا فى بعض الأحوال . وهذه أمور لايمكن الحكم على تفاصيلها بنفى وإثبات . فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ، ويدع مايريبه إلى مالايريبه

ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل ،فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ،وهو عين البخل . ولا خلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل ترك الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر وذلك لما فى الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال،فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال

فإن قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس ؟ . فاعلم أن لذلك علامات

إحداها : أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا ، أو أغزر منه علما، والناس له أشدّ قبولا فرح به ولم يحسده . نعم:لابأس بالغبطة ، وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه

والأخرى : أن الأكابر إذا حضروا مجلسه ، لم يتغير كلامه . بل بقى كما كان عليه.فينظر إلى الخلق بعين واحدة . والأخرى أن لايحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الأسواق

ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها . وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال كنت جالسا إلى جنب الحسن ، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر . فدخل المسجد على برذونه ، فجعل يلتفت فى المسجد ، فلم ير حلقه أحفل من حلقة الحسن ، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن . فلما رآه الحسن متوجها إليه ،تجافى له عن ناحية مجلسه . قال سعيد : وتجافيت له أيضا

عن ناحية مجلسى ، حتى صار بينى وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج . فجاء الحجاج حتى جلس بينى وبينه ، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به فى كل يوم فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت فى نفسى لأبلون الحسن اليوم، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد فى كلامه يتقرب إليه ،أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه .فتكلم الحسن كلاما واحدا ، نحوا مما كان يتكلم به فى كل يوم ، حتى انتهى إلى آخر كلامه . فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال . صدق الشيخ و بر . فعليكم بهذه المجالس وأشباهها ،فاتخذوها حلقا وعادة ،فإنه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] أن مجالس الذكر رياض الجنة. ولولا ما حملناه من أمر الناس ماغلبتمونا على هذه المجالس ، لمعرفتنا بفضلها . قال ثم افتر الحجاج ،فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته . فلما فرغ طفق فقام . فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج ، فقال عباد الله المسلمين ، ألا تعجبون أنى رجل شيخ كبير ، وأنى أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ،وأن لى ثلثمائة درهم من العطاء ، وأن لى سبع بنات من العيال ! فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه ، والحسن مكب . فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه ، فقال مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ،ومال الله دولا ، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم . فإذا غزا عدو الله غزا فى الفساطيط الهبابة ،وعلى البغال السباقة . وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا . فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده . فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن ، فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه . فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج ، فقالوا أجب الأمير .فقام الحسن ،وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذى تكلم به . فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم ، وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك ، إنما كان يتبسم . فأقبل حتى قعد فى مجلسه ، فعظم الأمانة ، وقال إنما تجالسون بالأمانة ، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا فى الدينار والدرهم . إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل ، فنطمئن إلى جانبه ، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار

---

(١) حديث ان مجالس الذكر رياض الجنة: تقدم فى الاذكار والدعوات

إنى أتيت هذا الرجل ، فقال أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا ، لاأبالك ، تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك . قال فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل ، فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتبعونه ، فوقف فقال : هل لكم من حاجة ؟ أو تسألون عن شيء ؟ وإلا فارجعوا ، فما يبقى هذا من قلب العبد . فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ، ولا يتوانسون ولا يتعاونون ، فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك ياأرحم الراحمين

بيان

ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم فى موضع ، فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم فى بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده . أو يصلى ، مع أنه كان لايعتاد الصلاة بالليل أصلا . وكذلك قد يقع فى موضع يصوم فيه أهل الموضع ، فينبعث له نشاط فى الصوم ، ولولا هم لما انبعث هذا النشاط . فهذا ربما يظن أنه رياء ، وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب فى عبادة الله تعالى ، وفى قيام الليل وصيام النهار . ولكن قد تعوقه العوائق ، ويمنعه الاشتغال ، ويغلبه التمكن من الشهوات . أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال فى بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل فى منزله ، فتقطعه الأسباب عن التهجد ، مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده ، أو مطالعة حساب له مع معامليه . فإذا وقع فى منزل غريب ، اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير ، وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله ، وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله ، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء . أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع ،

أو سبب آخر ، فيغتنم زوال النوم ، وفى منزله ربما يغلبه النوم . وربما ينضاف إليه أنه فى منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتهجد دائما ، وتسمح بالتهجد وقتا قليلا ، فيكون ذلك سبب هذا النشاط ، مع اندفاع سائر العوائق . وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الأطعمة ، ويشق عليه الصبر عنها . فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه ، فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين . فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ، ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم . والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنك تكون مرائيا ، إذ كنت لا تعمل فى بيتك ، ولا تزد على صلاتك المعتادة

وقد تكون رغبته فى الزيادة لأجل رؤيتهم ، وخوفا من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم ، فيريد أن يحفظ منزلته . وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ؛ ولست تصلى لأجلهم بل لله ، وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق ، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبه إلا على ذوى البصائر . فإذا عرف أن المحرك هو الرياء ، فلا ينبغى أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله . وإن كان انبعاثه لدفع العوائق ، وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم ، فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه ، بل من وراء حجاب ، وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه ، فإن سخت نفسه فليصل ، فإن باعثه الحق وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعثه الرياء .

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم ، وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى . وقد يتحرك بذلك باعث الدين ، ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد . فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين ، فلا ينبغى أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد ، بل ينبغى أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ، ويشتغل بالعبادة . وكذلك قد يبكى جماعة ، فينظر إليهم ، فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى ، لا من الرياء ، ولو سمع

ذلك الكلام وحده لما بكى . ولكن بكاء الناس يؤثر فى ترقيق القلب . وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق ، إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه ، فيتباكى تكلفا . وذلك محمود ، وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه ، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم ، فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغى أن يترك التباكى . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة ، والتنفس ، والأنين عند القرءان أو الذكر ، أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق ، والحزن والخوف ، والندم ، والتأسف ، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره ، وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن . وذلك محمود . وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ، ليعرف بذلك . فإن تجردت هذه الداعية فهى الرياء . وإن اقترنت بداعية الحزن ، فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه . وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره ، وضاع سعيه ، وتعرض لسخط الله تعالى به .

وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمده ويزيد فى رفع الصوت . فتلك الزيادة رياء ، وهو محظور . لأنها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء . فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت ، أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحى أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفا ، ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق . وقد يزول عقله ، فيسقط ، ولكن يفيق سريعا ، فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة ، وإنما هى كبرق خاطف ، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله . وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا ، فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ، ولو كان لدام ضعفه فيستديم إظهار الضعف والأنين ، فيتكىء على غيره ، يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل فى المشى ، ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكايد الشيطان

ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه فى الباطن ، واطلعوا على ضميره لمقتوه ، وأن الله مطلع على ضميره ، وهوله أشد مقتا . كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف ، فقال ياشيخ الذى يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين . وقد جاء فى الخبر « تَعَوَّذُوا[1] بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ » وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع

ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف ، وتذكر ذنب وتندم عليه : وقد يكون للمراآة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهى مع تقاربها متشابهة . فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ماهو ، ومن اين هو . فإن كان لله فأمضه ، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شىء من الرياء الذى هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها . واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا . فإذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ، ومقته لك ، وتذكر ماقاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام ، إذ قال ياأيوب : أما علمت أن العبيد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ، ويجزى بسريرته؟ وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى ، وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ، محافظا على رياء الناس من نفسى ، ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى ، أبدى للناس أحسن أمرى ، وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقربا إلى الناس بحسناتى ، وفرارا منهم إليك بسيئآتى فيحل بى مقتك ، ويجب على غضبك . أعذنى من ذلك يارب العالمين

وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : ياأيوب ، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن ، تسود وجوههم؟

---

(١) حديث تعوذوا بالله من خشوع النفاق: البيهقى فى الشعب من حديث أبى بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه أحمد وابن معين

فهذه جمل آفات الرياء، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ، ففي الخبر[1] إن للرياء سبعين بابا ، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض ، حتى أن بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل . وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبه. وليته أدرك بعد بذل المجهود . فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب ، وامتحان للنفس ، وتفتيش عن خدعها ، نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه

بيان

ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يُلزِمُ المريد قلبه في سائر أوقاته ، القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لايخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله . فأما من خاف غيره وارتجاه ، اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله . فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان ، لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لايقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا على الإفشاء ، وتقول مثل هذا العمل العظيم ، أو الخوف العظيم ، أو البكاء العظيم ، لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك . فما في الخلق من يقدر على مثله . فكيف ترضى بإخفائه . فيجهل الناس محلك ، وينكرون قدرك ، ويحرمون الاقتداء بك ! ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ، ودوامه أبد الآباد ، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده . ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه ، وسقوط عند الله ،

---

(١) حديث الرياء سبعون بابا هكذا ذكر المصنف هذا ـ الحديث : هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه انه الرياء بالمثناة وانما هو الربا بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الربا سبعون حوبا أيسرها ان ينكح الرجل أمه وفي اسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا واسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على انه الرياء بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم

وإحباط للعمل العظيم . فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق ، وهم عاجزون لايقدرون لى على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه .

ولا ينبغى أن ييأس عنه ، فيقول إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ؛ فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم . فيترك المجاهدة فى الإخلاص . لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقى ، لأن المتقى إن فسدت نوافله ، بقيت فرائضه كاملة تامة . والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان ، والحاجة إلى الجبران بالنوافل . فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض ، هلك به . فالمخلط إلى الإخلاص أحوج

وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « يُحَاسَبُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنْ نَقَصَ فَرْضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرْضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفَيْهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ » فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص ، وعليه ذنوب كثيرة ، فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل . وأما المتقى ، فجهده فى زيادة الدرجات . فإن حبط تطوعه بقى من حسناته مايترجح على السيئات ، فيدخل الجنة . . فإذاً ينبغى أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه ، لتصح نوافله . ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ ، حتى لا يظهره ولا يتحدث به . وإذا فعل جميع ذلك . فينبغى أن يكون وجلا من عمله ، خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده ، مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها ، ورد عمله بسببها . ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده لا فى ابتداء العقد . بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ، مايريد بعمله إلا الله ، حتى يصح عمله . فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان ، كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله ، من رياء أو عجب أولى به . ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص ، وشك فى أنه هل أفسده برياء ، فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات ، فالإخلاص يقين والرياء شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذى يتقرب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم ، ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور

(١) حديث تميم الدارى فى إكمال فريضة الصلاة بالتطوع : أبو داود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة

على قلب من قضى حاجته فقط . ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ، ومكافأة وحمد ، وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره ، فلا ثواب له غيره . نعم . إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى أن بعضهم وقع في بئر ، فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه ، فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرءان ، أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخي : أهديت لسفيان الثوري ثوبا فرده عليّ . فقلت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليّ . قال علمت ذلك ، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيرا . فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء ؟ فقال يرحم الله أباك ، كان وكان ، وأثنى عليه . فقال يا أبا عبد الله ، قد عرفت كيف صار هذا المال إلي ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك . قال فقبل سفيان ذلك . قال فلما خرج قال لولده : يا مبارك ، ألحقه فرده عليّ . فرجع فقال أحب تأخذ مالك . فلم يزل به حتى رده عليه ، وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى ، فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلك ، أي شيء قلبك هذا حجارة ! عدّ أنه ليس لك عيال ، أما ترحمني ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالنا ؟ فأكثرت عليه . فقال لي يا مبارك ، تأكلها أنت هنيئا مريئا ، وأسئل عنها أنا . فإذاً يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط . ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ، ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه . وهو خطأ . لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال والعلم . وربما يفيد وربما لا يفيد . فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على توهم علم ! وذلك غير جائز . بل ينبغي أن يتعلم لله ، ويعبد لله ، ويخدم المعلم لله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ،

إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة . فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ، ولا يريدوا بطاعتهم غيره

وكذلك من يخدم أبويه ، لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما ، إلا من حيث أن رضا الله عنه في رضا الوالدين . ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية في الحال ، وسيكشف الله عن ريائه ، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا

وأما الزاهد المعتزل عن الناس ، فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله . فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به . وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله ، وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان ، دخلت عليه في صومعته ، فقلت ياسمعان منذكم أنت في صومعتك ؟ قال منذ سبعين سنة . قلت فما طعامك ؟ قال ياحنيفي ومادعاك إلى هذا ؟ قلت أحببت أن أعلم . قال في كل ليلة حمصة . قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت نعم : قال إنهم يأتوني في كل سنة يوما واحدا ، فيزينون صومعتي ، ويطوفون حواها ويعظموني . فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة . فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة . فاحتمل ياحنيفي جهد ساعة لعز الأبد . فوقر في قلبي المعرفة . فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال انزل عن الصومعة . فنزلت . فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا ياحنيفي ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت من قوته . قالوا فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا ساوم . قلت عشرون دينارا . فأعطوني عشرين دينارا . فرجعت إلى الشيخ ، فقال ياحنيفي ماالذي صنعت ؟ قلت بعته منهم . قال بكم ؟ قلت بعشرين دينارا . قال أخطأت ، لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك . هذا عز من لا تعبده . فانظر كيف يكون عز من تعبده ! ياحنيفي أقبل على ربك ، ودع الذهاب والجيئة . والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة ، وقد لا يشعر العبد به . فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة . فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ، ولم يضق به ذرعا ، إلا كراهة ضعيفة . إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه ،

فإنه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه ، لم يزده ذلك خشوعا ، ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ، ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان ، وبادر إلى ذلك ، ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه، فيرجى له أن لايخيب سعيه ، إلا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لاينبسطوا إليه ، فذلك لابأس به ، ولكن فيه غرور . إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض ، فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا ، أو يضحك كثيرا ، أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك . فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة ، فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لايشق عليه إزالتها ○ فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان ، أحدهما غنى والآخر فقير، فلا يجد عند إقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لاكرامة ، إلا إذا كان فى الغنىّ زيادة علم أو زيادة ورع ، فيكون مكرما له بذلك الوصف لابالغنى . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر ، فهو مراء أو طماع . وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد فى الرغبة إلى الآخرة ، ويحبب إلى القلب المسكنة . والنظر إلى الأغنياء بخلافه . فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقير !

وقد حكى أنه لم ير الأغنياء فى مجلس أذل منهم فيه فى مجلس سفيان الثورى كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء ، حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغنى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير ، لكنت لاتقدم الغنى عليه فى إكرام وتوقير ألبتة ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى فإيثارك له لايكون إلا طمعا فى غناه ، ورياء له . ثم إذا سويت بينهما فى المجالسة ، فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفى ، أو طمع خفى . كما قال ابن السماك لجارية له : مالى إذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة ؟ فقالت الطمع يشحذ لسانك . وقد صدقت . فإن اللسان ينطلق عند الغنى بما لاينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده مالايحضر عند الفقير

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ماسوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة ، وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات ، وساعدته اللذات ، ولكن فى بدنه سقم ، وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات . وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته ، عاش ودام ملكه . فلما عرف ذلك جالس الأطباء ، وحارف الصيادلة ، وعود نفسه شرب الأدوية المرة ، وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات ، وصبر على مفارقتها . فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه . فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر فى توالى الأوجاع والآلام عليه ، وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته ، الموجب لشماتة الأعداء به . ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء ، الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه ، فى عيش هنىء ، وبدن صحيح ، وقلب رخى ،وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ، ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته ، وهى لذات الدنيا وزهرتها ،فاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول ، والوحشة ، والحزن، والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق ، خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه . فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه ، وإيمانه بعاقبة أمره ، وبما أعدّ له من النعيم المقيم فى رضوان الله أبد الآباد . ثم علم أن الله كريم رحيم ، لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا ، وبهم رءوفا ، وعليهم عطوفا. ولو شاء لأغناهم عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ، ويعرف صدق إرادتهم ، حكمة منه وعدلا ثم إذا تحمل التعب فى بدايته ، أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء ، وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ، ويتولى سياسته وتقويته ، وأمده بمعونته . فإن الكريم لايضيع سعى الراجى ، ولا يخيب أمل المحب ، وهو الذى يقول . من تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذارعا : ويقول تعالى . لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وإنى إلى لقائهم أشد شوقا . فليظهر العبد فى البداية جده وصدقه وإخلاصه ، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ماهو اللائق ، بجوده ، وكرمه ، ورأفته ، ورحمته . تم كتاب ذم الجاه والرياء ،والحمد لله وحده

فهرست الجزء العاشر